طوني سكاف

سفيرُ النِّعمة

طوني سكاف

«إنَّها لأعظم بركة أن تكون خاضعًا
بسرورٍ لسُلطان اللّه»

جون كالفن

الطبعة الأولى: ٢٠٢٣

الكتاب: سفيرُ النِّعمة
المؤلّف: طوني سكاف

تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: kreactiv.net

مراجعة لغويّة: بولس رعد

الهاتف: +96171981341
البريد الإلكتروني: info@new-nation.org
موقع إلكتروني: www.new-nation.org

ISBN: 979-8-88895-078-4

جميع حقوق الطبع باللغة العربيّة محفوظة للناشر وحده ©
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أيّ جزء منه من دون إذن الناشر.
وللناشر وحده حقّ إعادة الطبع.

المحتويات

مقدّمة: ١١

الفصل الأوّل:

رجلٌ من طرسوس ١٥

الفصل الثاني

قبل اللّقاء ٢١

الفصل الثالث

دهشة اللّقاء ٣١

الفصل الرّابع

الإستعداد ٣٩

الفصل الخامس

مبادئ الخدمة ٤٧

الفصل السّادس

النموذج والمثال ٦٢

الفصل السّابع
كما للرَبّ ٨١

الفصل الثامن
الحيـرة ٩٥

الفصل التاسع
إختبار ميليتُس ١٠٥

الفصل العاشر
الطرسوسي والصّليب ١١٧

الفصل الحادي عشر
رسول النِّعمة ١٢٥

الفصل الثاني عشر
شُركاء الخدمة ١٣٤

الفصل الثالث عشر
القيود ١٤٤

الفصل الرّابع عشر
الموت ١٥٤

الفصل الأخير
ربحٌ وخسارة ١٦٣

مقدّمة

عـرض القـس طونـي سـكاف فـي كتابـه «**سـفير النعمـة**» أهميـة بولـس الرسـول النابعـة ممـا وصل إليه كإنسـان بتفـوُّق حياته وقوتها. وقـد أثَّرَت حياتـه علـى عـدد لا يُحصـى مـن المؤمنيـن والكنائـس وقادتها منـذ القرن الأول إلـى اليـوم. وفيمـا يلـي جوانـب التميُّز فـي حياة بولس كمـا يعرضها كتـاب القـس طوني.

قـوة التعليـم. يكشـف الكتـاب عمـا يخسـره الإنسـان بإهمالـه لحياة شـخص فريـد قـدَّم أفـكار المسـيح عن أمـور كثيرة لـم تُذكَر فـي الأناجيل، ووضَّـح الامتيـازات الروحيَّـة الكثيـرة فـي العقائـد الأساسـية للمسـيحيَّة، وبيَّـن حيـاة الكنيسـة المحليَّـة، وكيـف يقـود كلّ ذلك إلى معرفة المسـيح نفسـه والتشـبُّه به.

التغييـر المعجـزيّ. يعـرض الكتـاب التغييـر المعجـزيّ الـذي حصـل لبولـس مـن رافـض عنيـد للمسـيح ومضطهـد المؤمنيـن بـه إلـى خـادم للمسـيح ولكنيسـته، ومـن فريسـي متعصِّـب لدينـه ومتمسِّـك بوحدانيـة

اللـه إلـى مُبشـرًا بالخبـر السـار، الإنجيـل، ومناديًـا بألوهيـة المسـيح. ومن شـخص يتَّصـف بالضـلال، والقسـاوة، والكبريـاء، والشـهوة، والفشـل، إلـى إنسـان جديـد اقتحـم المسـيح البـارّ قلبـه لينقِّـه ويحـرره.

مركزيـة النعمـة. يشـدِّد الكتـاب على قوة اختبـار بولس عنـد مقابلته للمسـيح والـذي نتـج عنـه تشـديد بولس فـي تعاليمـه على نعمـة الله في تغييـر الإنسـان واسـتخدامه بطـرق تفـوق علـى قدراتـه البشـرية. وتألَّـق موضـوع النعمـة فـي كلّ كتابـات بولـس كأسـاس لـكل تعامـلات اللـه مـع البشريّة.

ضـرورة الاسـتعداد. يكشـف الكتـاب علـى أنَّـه، رغـم اختبـار بولـس القـوي عنـد اللقـاء مـع الـربّ، احتـاج هو إلـى مدة مـن الزمن للاسـتعداد. فـكان أول مـا فعلـه هو اللقاء مع التلاميـذ للتعلُّم منهم كلّ مـا كان ممكنًا. انطلـق بعـد ذلك إلى منطقـة العربية لقضاء ثلاث سـنوات للاختلاء بالربّ. ثـم قضـى خمسـة عشـر يومًا مـع بطـرس ويعقوب أخـي الربّ. وبتشـجيع مـن برنابـا، قضـى وقـت مع سـائر التلاميـذ بما في ذلـك يوحنـا. فما أحوج ومـا أهـم الاسـتعداد الكافـي قبل الغـوص في خدمـة الربّ.

الانتصـار علـى التجـارب. يجـد القـارئ معالجـة خاصـة لآلام بولـس وشـدائده وكيـف تعامـل معها وبقـي منتصـرًا عليها. ويكشـف الكتاب عن تعلُّـم بولـس كيـف يختبـر قـوة المسـيح مـن خـلال ضعفاتـه وتجاربه.

التمسُّـك بالحـق. يكشـف الكتـاب بوضـوح صـدق قلـب بولـس. فمع أنَّـه قـام بمعجـزات خارقـة تثبـت رسـوليته، كان لا يسـتخدمها باسـتمرار

ولا يتباها بها. فكان تركيزه هو على الحق الإلهيّ بكلّ إخلاص، وليس على المظاهر الخارجيّة. ولم يسعَ لمجد من الناس بل من الله، ولذلك كانت حياته الروحية مميَّزة.

الاستقامة المُستمرة. تمَّيز بولس أيضًا بتواضعه، وباعترافه بضعفه، ولكن بالوقت نفسه، باستخدام ضعفه ليجعل قوة المسيح تحلّ عليه. وقد استطاع بمهارة التغلُّب على احباطات الخدمة المتغيرة مع البركات السماوية غير المتغيرة. وفي كلّ ذلك، تألَّق بولس بأنّه كان يعرف نفسه بحسب ما كان يعرف الله.

العاطفة الصادقة. تميَّز بولس بالشفافية بالتعبير عن مشاعره. وظهر ذلك ذروةً في وداعه للقادة الذين دعاهم إلى ميليتس. وشارك معهم عن اختباراته المؤلمة. ولكن بالوقت نفسه عبَّر عن مخاوفه من المخاطر التي ستواجههم. وظهرت عاطفته الصادقة في تسليم القيادة للجيل الجديد لأنَّه كان يهمه الطاعة لمشيئة الله الذي يهتم بأقامة الأجيال الصاعدة من الرُعاة. يلخَّص القس طوني عاطفة بولس قائلًا: «إختبار ميليتُس كان إختبار ألم الوداع وروعة التسليم.»

مركزية الصليب. إنَّ القوة الدافعة لكلّ فكر بولس ومشاعره وخدماته وكتاباته كان مركزية الصليب. فعلَّم بولس أنَّ الصليب هو الرجاء الوحيد لخطية الإنسان. ولذلك رفض أن يتَّكل على أعماله أو حتى على أخلاقه رغم تفوقها على الكثيرين من معاصريه. فقد عاش بولس اعتقاده الراسخ بسموّ نعمة الله وقوتها في تغيير الإنسان. ما

يغيِّـر الإنسـان ليـس عمـل الإنسـان بـل عمـل اللـه.

إكـرام الآخريـن. تميَّـز بولـس أيضًـا فـي معاملتـه المخلصـة للآخرين فـي ذِكـره لهـم، واهتمامه بهـم، وخدمته لهـم، ودعمه لجميعهـم، وحكمة التعامـل مـع مشـاكلهم وأخطائهم.

المتانـة أمـام الاضطـاد. في كلّ سـوء المعاملـة لبولس وإيذائـه كلاميًا وجسـديًا حتـى الجلـد والقيود والسلاسـل، ورغـم أنه كان بلا لـوم، لكنه لم يدافـع عـن نفسـه إطلاقًا، بـل اسـتخدام الاضطهاد لتقـدُّم خدمته، واسـتمر بشـجاعة بالإعـلان عن الحقّ حتـى الموت. وكل ذلك لأنَّـه «كانت المُعادلة بسـيطة عند هذا الرسـول؛ خسـارة كُل شـيء مقابل ربح المسـيح.»

بالنهايـة، يعمِّـق هـذا الكتـاب الثقـة بوحـي كتابـات بولـس، ويشـجِّع القلـب بالاسـتمرار فـي الإيمـان الـمُسلَّم مـرة للقديسـين، ويدفـع الخادم الأميـن للعيـش بأفضـل حيـاة لأسـمى مُخلَّـص.

القس الدكتور عماد شحادة

رئيس الهيئة الانجيلية الثقافية في الأردن

الفصل

١

رجلٌ من طرسوس

«أعظمُ المسيحيّين، وأعمق المعلّمين تفكيرًا، وأكثر الأصدقاء إخلاصًا، وأشجعُ المُغامرين، وأكثر المُتألّمين بسالةً، وأكثر القدّيسين مدعاةً للسّرور، بولس الطرسوسيّ.»

ر.أ. دوايت

إنّ كلّ من يقرأ الكتاب المُقدَّس بعهديه، لا بدّ أن يجدَ أنّ المسيح يسوع هو محورُ كلّ هذا الكتاب بدون منازع. لكن عندما يُقرأ سفرُ أعمال الرّسل والرّسائل الثلاث عشرة اللّاحقة تظهر بقوَّة سيرةُ حياة رسول اسمُه «شاول» ويُدعى «بولس». فهو الذي قيل عنه من الذين يحبّونه أنّه أعظم رجل بعد المسيح، فيما قال أعداؤه أنَّه هو من وضع أُسس الايمان المسيحيّ.

لا شكّ أنَّه هو الشخصيَّة الأكثر إثارة بعد المسيح، والأكثر كِتابةً

فـي الكنيسـة الأولـى. وسـوفَ نكتشـف سـريعًا أنّ قصّـة هـذا الرَّجـل قـد أخـذت المسـاحة الأكبـر فـي هـذا السِّـفر، وكذلـك أيضًـا فـي الرّسـائل اللّاحقـة. **فالجـزءُ الأكبـر من المبادئ المسـيحيَّة قـد عُرِفَ وترسَّـخَ بفضل أفـكار ومشـاعر هـذا الرَّجـل**. منـه نتعلّم عن شـخص المسـيح الـذي تعلَّق بـه وأحبَّـه، وعـن مواضيـع مهمّـة مثـل التكريـس والإيمـان والأمانـة، وعن الكنيسـة والنّعمـة والتبريـر... لقـد قـال عنـه د. دوايـت: «الرَّسـول بولـس هـو أعظـم المسـيحيّين وأعمـق المفكِّريـن وأشـجع المغامريـن وأكثـر المتألِّميـن.»

يظـنّ البعـض أنّ سـيرة حيـاة هـذا الرَّجل هـي أمرٌ خـاصّ واسـتثنائيّ ولا يمكـن التمثّـل بهـا، إلاّ أنّ بولـس نفسَـه بإرشـاد الـرَبّ رأى عكـس ذلك تمامًـا، إذ كتـب فـي رسـالته الأولـى إلى تلميـذه تيموثاوس يقـول: «لكنَّني لهـذا رُحمـت: ليُظهِرَ يسـوعُ المسـيح فـيّ أنـا أوَّلاً كلَّ أناة، مِثـالاً للعتيدين أن يؤمنـوا بـه للحياة الأبديّـة» (١: ١٦). فإهمال أيَّ أمـر في كتابات بولس، وبالأهميَّـة نفسـها حياتُه، يجعلنـا نفتقر إلى الكثير مـن المعرفة الضروريّة لكـي نُشـبه المسـيح ونعرفَـه أكثـر، بالإضافـة إلـى خسـارتِنا لامتيـازات روحيّـة كثيـرة، ننالها جرّاء تفسـير بولس لبعـض العقائد الأساسـيَّة وكيفيّة معالجتِـه للأمـور التـي كانـت تحصل في الكنائـس في ذلك الزَّمـن، ويمكن أن تحصـل فـي كلّ كنيسـة فـي عصرِنـا الحالـي. إنَّ كتابـات بولس الرَّسـول ومواقفَـه ومشـاعرَه تحمـل أبعـادًا لاهوتيَّة كبيـرة، وأمورًا عمليَّـة ضروريَّة فـي حيـاة الإيمـان لا تُعبِّـر سـوى عـن رأي المسـيح المباشـر. فهـو الـذي اختيـر مـن المسـيح نفسِـه ليُرسـي أُسـس العقيـدة المسـيحيّة والسُّـلوك الرّوحـي الصَّحيـح لكونـه النمـوذج والمثـال. **فعلـى اعتـراف بطـرس بنـى**

الـرَبُّ أسـاس كنيسـته، وفـي سـيرة بولـس رسـم مَعَالِم تلك الكنيسـة.

إنّ إهمال دراسـة سـيرة هذا الرَّجل العظيم من طرسـوس هو إهمال معرفـة رأي المسـيح بتفاصيـلَ كثيرةٍ لـم تُذكر في الأناجيل، إذ إنّها سـوف تُذكـر في سـياقٍ آخرَ مناسـب لهـا ألا وهو حياة هـذا الرَّجل.

أوَّل الخطاة

عـرّف بولـس عـن نفسِـه أنّـه كان أوّلَ الخطـاة. وبهـذا أراد أن يُظهـر مدى رحمـةِ المسـيح ومحبَّتِـه اللّتَيـن وصلتـا إلـى خاطـئٍ مثلـه فانتَشَـلتاه مـن الضَّـلال واحتَضَنتـاه، ومـن ثـمَّ أرسـلَتاه ليخدمَ المسـيح الذي أحبَّه وأسـلم نفسـه لأجلـه، مظهـرًا بهذا جوهـر الإنجيـل، الذي يتمثَّل بالبُشـرى السَّـارّة فـي أنّ المسـيح جـاء ليُخلّـص مـا قـد هلك.

كان الرَّسـول بولس واسـمُه شـاول من مدينة طرسـوس الواقعة اليوم فـي تركيَّـا. وهـي كانـت مدينـة مرموقـة حيـث كثُرت فيهـا معاهـد العلم والتربيـة. وقـد حظـي بالجنسـيّة الرّومانيّـة مـع أنّـه كان يهوديًّـا مُفاخـرًا بهُويَّتِـه اليهوديَّـة. مـن أجل ذلك كان يُطلق عليه اسـم شـاول الطرسوسـيّ.

يُطلُّ علينا شـاول الطرسوسـيّ هذا في مشـهد يبدو فيه شـخصًا عنيفًا وقاسـيًا. ففيمـا كانـت تتمُّ عمليَّةُ رجم اسـتفانوس، الشَّـهيد الأوَّل للكنيسـة الـذي كان مملـوءًا بالـرّوح القـدُس والقـوَّة، وكانَ معروفًـا أنَّـه كان يهتـمُّ بالأرامـل واليتامـى، وقـف شـاول هنـاك راضيًـا عمّـا يحصـل: «وأخرجـوه خـارج المدينـة ورجمـوه، والشُّـهود خلعـوا ثيابهم عنـد رجلَي شـابٍّ يُقال

لـه شـاول» (أعمـال٧: ٥٨). إلاّ أنّ أمـرًا حصـل كان بمثابـة إشـارةٍ مهمّـة مـن الـرَّبّ لشـاول، تمثّلـت فـي مـا قالـه اسـتفانوس وهـو يحتضـرُ أثنـاء رجمِـهِ بطريقةٍ وحشـيّة وظالمة، إذ سـمعه يقـول: «أيُّها الرَّبّ يسـوع اقبَلْ روحي» (أعمال ٧: ٥٩). فبسـبب إشـارة الوحي المُقدَّس إلى وجود شـاول هنـاك، لا بـدَّ مـن أن يكـون لهـذا الحـدث تأثيرٌ مهـمٌّ في حياة هـذا الرَّجل.

أمامنـا هنـا مشـهد لافـت. فشـاول هـذا الـذي يقـف شـاهدًا وراضيًـا عمّـا يحصـل باسـتفانوس، سـيتحوّل فيمـا بَعـد ليصبـحَ مدافعًـا عَمَّـا مـاتَ اسـتفانوس مـن أجلـه، لا بل سـوفَ يكـون مصيرُه هـو أيضًا الاستشـهادَ من أجـل يسـوع. **فهـل هـي مُصادفـة أم تدبيـرٌ إلهـيّ أن يتحـوَّل أوَّلُ الخُطـاة إلـى أعظم الرُّسـل!**

مُضطهد الكنيسة

لقـد كان شـاول الطرسوسـيّ غيـورًا جـدًّا للـه الواحـد. فهـو لـم يحتمـل كلمـات اسـتفانوس عنـد موتـه إذ كان يدعـو يسـوعَ كمـا لـو انّه يُكلّـم الله شـخصيًّا. لذلـك نـراه يضطهد الكنيسـة ويهاجمها بـكلّ قوّتِه وسـلطته: «أمَّا شـاول فكان يسـطو على الكنيسـة، وهو يدخل البيوت ويجرُّ رجالاً ونسـاءً ويسـلّمهم إلـى السِّـجن» (أعمـال ٨: ٣). فقـد كان لهـذا اليهـوديِّ المثقّـف الـذي مـن سـبط بنياميـن أولويّـة عظمـى تكمـن فـي الدِّفـاع الشَّـرس عن معتقداتـه. فهـو الـذي قـال عن نفسـه أنَّـه كان «مـن جهة الغيـرة مضطهد الكنيسـة. من جهة البرِّ الذي في الناموس بلا لوم» (فيلبّي ٣: ٦). فبحسـب المفهـوم اليهـوديِّ كان شـاولُ الطرسوسـيُّ مُتديّنًـا ومُخلِصًـا وغيـورًا. كيف

لا وهـو الـذي تربّـى عنـد رجلَـي غمالائيـل، أعظـم المعلّميـن فـي جيلِـه والـذي لقِّـب بــ «مَجـد النّامـوس»، متعلِّمًـا منـه النّامـوس. فعندمـا كان غمالائيـل يتكلّـم كانـت المواضيـع تُحسـم وتنتهـي. مـن أجل ذلك، فـإنَّ ما أظهـره شـاول تجاه أتباع المسـيح من عنـفٍ واضطهاد، كان نتيجـة التزامِه الصّـادق والكبيـر بمـا يؤمن بـه. فهو قال عن نفسـه أنّه عاش فرِّيسـيًّا، وقد عنـى بذلـك أنّـه كان ملتزمًـا ومُدقِّقًـا بمـا يؤمن بـه. وعليه، لم يكن شـاول شـخصًا شـرّيرًا أو سَـيِّءَ الخُلُق، بـل مُتعصِّبًا لديانتِه. أمَّـا ملاحقتُه للمؤمنين فقـد كانـت نتيجـة صـدقِ التزامـه بالتفسـير الفرّيسـيِّ وغيرته عليـه. ففي أعمـال ٢٦: ٩، قـال: «فأنـا ارتأيـت فـي نفسـي أنَّـه ينبغـي أن أصنـع أمـورًا كثيـرةً مضـادَّة لاسـم يسـوع النَّاصـري.» فيسـوع كان يشـكّل بالنّسـبة إليه تهديـدًا للحَـقِّ الـذي تربّـى عليه. وهـذا يعني أنّـه كان باضطهاده للكنيسـة يظـنّ أنّـه يُحـارب إبليسَ وأعوانـه. والخُلاصة، كان شـاول من المُتشـدّدين فـي التَّعليـم اليَهـوديِّ الـذي تقـوم قاعدتُـه علـى وحدانيَّـة اللـه. **فهـل هي مُصادفـة أم تدبيـرٌ إلهـيٌّ أنَّ مَـن آمَـنَ بشـدّة بوحدانيَّة الله هو نفسُـه مَن سيُبَشِّـر بألوهيَّةِ المسـيح!**

تلميذ غمالائيل

فـي مفارقـةٍ بيـن شـاول ومعلّمِـه غمالائيـل نجد فرقًـا في معالجـة الأمور. ففـي أحـد المواقـف نـرى أنَّ رئيـس الكهنـة هـدَّد الرُّسُـل لكـي لا يعودوا ويعلّمـوا باسـم يسـوع. وهكـذا اجتمـع القـادةُ اليَهـودُ ليتشـاورا فـي كيفيَّـةِ التخلُّـص منهـم. إلاّ أنّ غمالائيـل تدخّـل حينهـا وقـال: «أيُّهـا الرِّجالُ الإسـرائيليّون احتـرزوا لأنفسـكم مـن جهـة هـؤلاء النّـاس فـي مـا أنتـم

مزمعـون أن تفعلـوا» (أعمـال ٥: ٣٥). ومـن ثـمّ يُعطي حجَّتَه لهـذا الإنذار قائـلًا: «والآن أقـول لكـم: تنحّـوا عـن هؤلاء النّـاس واتركوهم لأنَّـه إن كان هـذا الـرّأيُ أو هـذا العمـل مـن النّـاس فسـوف يُنتَقـض. وإن كان مـن الله فـلا تقـدرون أن تنقضـوه، لئَـلَّا توجـدوا محاربين للـه أيضًا» (أعمـال ٥: ٣٨ و٣٩). فيمـا نجـد أنّ شـاول الطرسوسـيَّ لـم يكـن متسـاهلًا البتّة مـع أتباع المسـيح، فيبـدو أنّـه كان مقتنعًـا إلـى أبعـد درجـات القناعـة، أنّ يسـوع وأتباعَـه ليسـوا مـن اللـه ويجـب القضـاءُ عليهـم خدمـة للـه. إلا أنَّ أشـدَّ الأعـداء للمسـيحيّة وأكثرَهـم اقتناعًـا بضلالهـا، سـوف يُصبـح عمّـا قريـب مـن أعظـم المبشِّـرين بها، ومن أشـدّ المتواضعيـن فيها لا بل من شـهدائِها الأوّليـن أيضًـا. هـذا الـذي زايد وافتخـر على مُعلِّمـه غملائيل فـي اضطهاد المسـيحيِّين لـن يطـول الوقـتُ قبـل أن نسـمعَه يقـول: «وَأَمَّـا مِـنْ جِهَتِي، فَحَاشَـا لِـي أَنْ أَفْتَخِـرَ إِلاَّ بِصَلِيـبِ رَبِّنَـا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ» (غلاطيـة ٦: ١٤). **فهـل هـي مُصادفـة أم تدبيـرٌ إلهـيٌّ بـأنَّ مَـن افتخَـرَ حتـى علـى مُعَلِّمـه، سـيصل إلـى حـدٍّ لا يفتخـر بعـدَه إلا بصليـبِ المسـيح؟!**

فـإذا كان لقـاءُ اسـتفانوس قـد هـزَّهُ وتـرك فيـه أثـرًا كبيـرًا، إذ إنَّ هذا التأثيـر مُتوقَّـع ومنطقـيّ، كيـف يمكـن أن يكـون لقـاؤُه مع إله اسـتفانوس نفسِه ؟

فقريبًـا سـوفَ يلينُ عنـادُ هـذا الرَّجـل ويتحـوَّل إلـى توبـةٍ وتسـليم وتكريـس تـاركًا «امتيازاتِـه» وراءَه. قريبًـا سـتكون رحمةُ المسـيح ونعمته أقـوى مـن كبريـاء وضـلال هـذا القلـب.

الفصل

٢

قبل اللّقاء

«بولس الرَّسول هو مسودَّة مثاليَّة للاهتداء والتحوّل للإيمان. هو رسمٌ بيانيٌّ لعمل المسيح في الإنسان، وموجز لعملِ النّعمة في القلب.»

شارلز سبرجن

كثيرون يتمنّون لو أنّهم تمتّعوا باللّقاءِ نفسِه الذي حصل عليه شاول الطرسوسيّ مع الرَّبّ يسوع، فإنَّ الذي اختبره هو حقًّا لأمرٌ عظيم يُدهش فعلًا كلَّ من يقرأه. فعندما ننظر إلى حياة بولس ما قبل اللّقاء، نكتشف أنّها تشبه حياة الكثيرين الغارقين في تديُّنٍ جاهلٍ وتعصُّب أعمى قبل أن يهتدوا إلى الإيمان الحقيقيّ بالمسيح يسوع. لقد كان هذا الرَّجل يُقاوم الله في الوقت الذي كان فيه يظنّ أنّه يخدمه. وهذا ما عبَّر عنه في أمكنةٍ عديدةٍ من رسائله، لا سيّما عندما كان يكتب عن اختباره الشَخصيّ. فحياته لم تكن تحتاج إلى تصحيح، بل إلى تغييرٍ جذري. **قد يكون المُتديِّنُ أو الغيورُ لله هو الأكثرَ ضلالة من غير**

المتديِّن.

فبولس لم يكتب هذا الاختبار لكي يتباهى به، بل قاده الرّوحُ القدُس لكتابته كيما نتعلّم منه. فبعد أن نكَّلَ بالمسيحيِّين ظهر أمامَه الذي يكرهُهُ قائلًا له: «صعبٌ عليك أن ترفسَ مناخس.» أي، من الصَّعب عليك والمؤلم لك أن تُقاومَ عمل الربّ. لقد أظهر هذا الاختبارُ لشاول المتعلّم عند رجلَي غمالائيل ضلالَه الكبير الذي عاشه مقاومًا لله لا محاربًا في صفّه أو مدافعًا عنه. ما أصعب أن نظنَّ أننا نخدم الرَّبّ ونرضيه، فيما الحقيقة هي أننا نقاومه على نحو شَخصيٍّ. إنّ مقاومة مشيئة الله لا تجلب سوى الألم والتَّعب النَّفسيَّين، ذلك لأنَّ الإنسان مخلوقٌ بالأصل كي يمجِّد الله لا أن يحاربه. فبدل الشُّعور بالرَّاحة والاستسلام تسود مشاعر الغضب، وبدل التمتّع بالفرح يغلبُنا الحزن والكآبة. بهذا الأسلوب كشف المسيحُ لشاولَ كم هو مخدوع في حماسته وكم هو جاهل في معرفته. كأنَّ الرَبَّ يسوع يريد أن يُنبِّه شاول الطرسوسيَّ بوجود دلائل داخله تُدينُه وتساعده على اكتشاف ضلال طريقه وخياراته الخاطئة. ها نحن أمام قصّة **رجُلٍ من طرسوس وُضعَ أمام مواجهةِ ضلال قلبه وخداعه قبل مواجهةِ ربِّه.**

قساوة

وقف شاولُ الطرسوسيُّ، مُستمعًا وشاهدًا على محاكمة استفانوس أمام اليهود المتعصّبين الذين يرفضون الطريقَ الجديدَ كما يدَّعون. وبينما هو ممتلئٌ من الغيرة العمياء، كانت تنزل على مسامعه كلماتُ

استفانوس: «يا قساة الرِّقاب، وغيرَ المختونين بالقلوب والآذان، أنتم دائمًا تقاومون الرّوحَ القدُس. كما كان آباؤُكم كذلك أنتم» (أعمال ٧: ٥١). ما أصعب هذه الكلمات على أذنَي شاول! فهو من كان يتَّهِمُ المسيحيِّين بمقاومة الله، فكيف لهذا المسيحيِّ أن يتَّهمَه ومن معه بمقاومةِ روحِ الله؟ لا بدَّ أنَّ كلمات استفانوس هذه، أثَّرَت تأثيرًا شديدًا في عمليّة كشفِ جوهر مشكلةِ قلب شاول، ألا وهي القساوة التي تختبئ بعباءَة الغيرة للحَقّ. فما كان يظهر في حياة شاول من الخارج لم يكن فعلًا هو الحقيقة، إذ لم تكن غيرتُه هذه من الله، ولا من أجل الله، بل غيرة أعمت عينَيه وأغلقت قلبه عن أن يرى ويفهم مشيئة الله. إنَّها قساوة القلب، المرضُ الخبيث المُتأصِّل في طبيعة الإنسان. لقد جعَلَته هذه القساوة يظنّ أن ما يراه صحيحٌ وصائب، بينما كان هو في قعر الظُّلمات والعمى الرُّوحي.

لكنَّ الرَّبَّ بمحبّتِه وطولِ آناته كان يبعث برسائل إلى قلب شاول قبل أن يأتيَ الاقتحامُ الفعليُّ الذي قلَبَ الموازين. فإننا نستطيع أن نجد معاملات الرَّحمة المستمرّة وفاعليَّة تأثيرات الكلمة على حياته منذ البداية. فمن كلمات استفانوس بدأ الرَّبُّ يقتربُ إلى قلب شاول العنيد، فلمسَ عمقَ مشكلته قبل أن يأتي ذلك اليومُ المشهود على طريق دمشق وتلك المقابلة التي اخترقت كيانه.

لم يكن استفانوس تلميذًا عاديًّا، إذ يقول عنه الكتاب المقدَّس في سفر الأعمال: «وَأَمَّا اسْتِفَانُوسُ فَإِذْ كَانَ مَمْلُوًّا إِيمَانًا وَقُوَّةً كَانَ يَصْنَعُ عَجَائِبَ وَآيَاتٍ عَظِيمَةً فِي الشَّعْبِ» (٦: ٨). تُرى هل كان شاول

الطرسوسيُّ، هذا المُدافعُ المقدامُ عن الإيمان اليهوديِّ يغارُ من القوَّة الرُّوحيَّة الظاهرة في حياة استفانوس؟ هل تملّكَه الخوفُ والرّعدة عندما نظر إلى وجه هذا التلميذ الذي كان يلمع، إذ أضافَ البشيرُ ما جرى بدقَّةٍ مشيرًا إلى أمرٍ بالغ الأهميَّة: «فَشَخَصَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْجَالِسِينَ فِي الْمَجْمَعِ وَرَأَوْا وَجْهَهُ كَأَنَّهُ وَجْهُ مَلاَكٍ» (أعمال ٦: ١٥)؟ على الأرجح أنَّه رأى في استفانوس ما كان يرغبُ بأن يكون من نصيبِهِ هو، وجهَ ملاك! ربَّما استحضره ما جاءَ في سِفر الخروج عندما صارَ وجهُ موسى يلمعُ بعد لقائِه الله. فهو يختبرُ آلامَ ظلامِ القلب فيما استفاوس انعكاسَ نورِ الله!

كبرياء

إنَّ الكبرياء هي من أشنع الخطايا وأبشعِها، (بل أُمّ الخطايا) والمتجذّرة في قلب الانسان. لقد أخبر بولس الغلاطيِّين معترفًا لهم عن حالةِ قلبه قبل لقائِهِ الذي كان يضطّهدُه قائلاً: «وكنت أتقدّم في الدّيانة اليَهوديَّة على كثيرين من أترابي في جنسي، إذ كنت أوفرَ غيرةً في تقليداتِ آبائي» (غلاطيَّة ١: ١٤). فهو الذي عاش حول ذاته، ويُفترَض أنّه كان أكثرَ مَن دافع عن الله ومِن أجلِه، وأنّه تمسَّك بتقاليد آبائِه من دون مساومةٍ أو تنازل. لم يكن يدرك حينها حقيقة قلبه المتكبّر، بل ظنَّ أنَّه الرَّجُل التّقيُّ والمتديِّن الذي يعرف الحقيقة والمستعدّ لتكريس حياتِه كلّها كي يدافع ويحافظ عليها، حتى إنّ غمالائيل مُعلّمَه لم يصل إلى هذا المستوى من الغيرة والحماسة، إذ اقترح هذا الأخيرُ أن يُترَكَ الرُّسُل لكي تظهرَ مع الوقت حقيقةُ أمرهم بما يخصّ هويّتَهم وصحّة

أقوالهم. فهو من نَصَح رؤساءَ المجمع قائلاً: «وَالآنَ أَقُولُ لَكُمْ: تَنَحَّوْا عَنْ هَؤُلاَءِ النَّاسِ وَاتْرُكُوهُمْ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ هَذَا الرَّأْيُ أَوْ هَذَا الْعَمَلُ مِنَ النَّاسِ فَسَوْفَ يَنْتَقِضُ وَإِنْ كَانَ مِنَ اللهِ فَلاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَنْقُضُوهُ لِئَلاَّ تُوجَدُوا مُحَارِبِينَ لِلَّهِ أَيْضًا» (أعمال ٥: ٣٨ و٣٩). أمّا شاولُ الطرسوسيُّ فقد غالى في غيرته حتى على مُعَلِّمه.

لقد أخفت هذه الغيرَةُ الظاهرةُ مشكلة قلبيّة خفيَّة تكمن في أمرَين، ألا وهما الكبرياء والرِّياء. ولهذا كانت كلمات استفانوس كسَهمٍ يُطلَقُ ليصيب عمق مشكلة قلب شاول. فبطريقة ما، أظهر شاول أنّه يريد المدافعة عن حَقِّ الله، بينما حقيقة قلبه كانت أنّه تمسَّكَ بما رآه هو وما أراده هو. فهو لم يُرِدْ إعادة النَّظَر في معتقداتِه أمام واقع قلبه المتكبّر، ولا أراد مراجعة مواقفِه بشفافيَّة أمام الله بسبب عناده الذي وصفه في ما بعد بعمَلٍ جاهل . لقد حمل غضبًا داخليًّا دفينًا على الله، ظهر من خلال العنف الذي كان يمارسه على أتباع الطَّريق. فكيف لله العظيم أن يسمح لجماعةٍ مبتدعَةٍ كهذه على حدِّ ظنِّه أن تنموَ وتنتشرَ وتؤثّر وتحدِثَ تغييرًا؟ وكيف لإلهٍ عظيم أن يستخدم أشخاصًا شبهَ أمّيِّين مثل بطرس ويوحنّا، وعشَّارين وخطاة ويجعل منهم رجالًا أتقياء يعلِّمون آخرين؟ فالأمر إنّما يشبه قصّة الإبن الأكبر في مَثَل الإبن الضَّالّ، الذي أظهر في وجوده قربَ أبيه على عكس ما فعل الإبنُ الأصغر. فهو أظهر محبَّةً له، فيما كان في الحقيقة هو الضَّالَّ والبَعيدَ أكثر من أخيه.

إنَّ المعاناة والمشاكل التي تظهر على السَّطح، ليست سوى صورةٍ

مصغّـرَةٍ عـن المشـاكل التـي تدور فـي الدَّاخل، فـي أعماق كيان الإنسـان. هـذا الدَّاخـل أي القلـب، الـذي يُعَبَّـرُ عنـه بكيانِنـا، يحمل في طيَّاتِه أسـاسَ مشـاكلنا والصُّورَة الحَقيقيَّة التي لا تُرى بالعيان. فطالما الإنسـان يقفُ في الـدَّار الخارجيَّـة، يبحـث ويراقب مـن بعيد دون أن يدخلَ إلـى الدّاخل، لن يسـتطيع أن يـرى مـا لا يُـرى، ومَـن لا يُـرى، أي لـن يتمكَّن من استكشـاف واقـع حالـه ولـن تظهـرَ الحقيقةُ أمـام عينَيه كما هـي، بل سـيَبقى مخدوعًا لأنَّ «اْلقَلْـب أَخْـدَعُ مِـنْ كُلِّ شَـيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ مَـنْ يَعْرِفُهُ!"

شهوة

صـارع شـاولُ أيضًـا وبشـكلٍ خـاصٍّ مـع الشَّـهوة، أوَليـس هـو مـن كتـب فـي رسـالةِ رومية قائـلاً: "فمـاذا نقـول؟ هـل النَّامـوس خطيَّـة؟ حاشـا! بل لـم أعـرفِ الخطيَّـة إلاّ بالنّامـوس، فإنَّنـي لـم أعـرفِ الشَّـهوة لـو لـم يقـل النَّامـوس: لا تشـتَهِ" (٧: ٧). فبعد أن عرف شـاولُ النَّامـوس، أدرك أنّه عالقٌ فـي شـباك هـذه الخطيّة. فهو اشـتهى أن يكـون الأوّلَ في تطبيـق النَّاموس والدِّفـاع عنـه، بـل كان رأسَ الحربَـة فـي محاولـةٍ لإلغـاء وقمـع كلّ مـن يحـاول أن يأخـذ منـه هذا الامتياز وهذا الشَّـرَف بحسـب ظنِّـه. وفيما لمع وجـهُ اسـتفانوس "كَأَنَّـهُ وَجْهُ مَـلاَكٍ" وهو يتكلَّم مملـوءًا بالْحِكْمَـةَ وَالرُّوحَ فـي المجمـع، تزاحمـت الأسـئلةُ والأفكار في ذهن شـاول: "ألسـتُ أنا من يجـبُ أن يشـبهَ موسـى أكثـر؟ ألسـتُ أنـا مـن يدافع عـن الحَقِّ ويسـتخدم سـيفَهُ دفاعًـا عـن الإيمـان القويـم؟ فمن هو اسـتفانوس هذا؟ فشـاول أراد نياشـين ترصِّـعُ صـدرَه، وأراد أن يكـون القائـدَ الأكثـر إقدامًـا فـي الحـرب ضِـدَّ أعـداء اللـه، حالُـه حـالُ كلِّ إنسـانٍ فـي كلِّ مـكان وزمـان. **فـلا حدودَ**

لطموحات الشَّهوة ودائرتها.

كان شغلُ شاول الشَّاغل أن يُعرَفَ كيَهوديٍّ أمينٍ وتقيٍّ أمام الله والنَّاس. وصف صراعه مع الشَّهوة بهذه الكلمات: "ولكنَّ الخَطيَّة وهي متّخِذَة فرصة بالوصيّة أنشأت فيَّ كلَّ شهوة. لأنَّ بدون النَّاموس الخطيّة ميّتة" (رومية ٧: ٨). إنّ الشَّهوة تسيطر على قلب الإنسان، الأمرُ الذي يجعله يظنّ أنّه كلّما امتلكَ وأنجز أكثر، هو يتقدّم وينجح. **الشَّهوة هي الخطيّة التي تلدُ كثرةً من الخطايا.** فمن يشتهي، يقوم بإيذاءِ الآخرين لكي يمتلك. هذا بالإضافة إلى عدم الإكتفاء والطَّمع والأنانيَّة والرِّياء وغيرها من الخطايا التي ترافق الشَّهوة حيثما حلَّت. لكنَّ **محبَّةَ الرَّبِّ الخاصَّة لنا وتفاعُلَنا معها من خلال محبَّته من كلِّ القلب تُنشِىءُ شهواتٍ مقدَّسة.**

الفشل

بعد أن تكلّمَ استفانوسُ عن مقاومةِ رجالِ الدّين في ذلك الوقت للرّوحِ القدُس، يطلعُنا كاتب سِفر الأعمال على ردَّةِ فعلِهم: "فلمّا سمعوا هذا حنقوا بقلوبهم وصرّوا بأسنانِهم عليه" (٧: ٥٤). لقد كان شاول الطرسوسيُّ واحدًا من هؤلاء الذين استفزّهم كلام استفانوس. فالإنسان غالبًا ما ينزعج ويُستَفَزّ من كلمات وعبارات تُصيب أمراضًا في قلبه لا يراها، بل ربّما لا يريد أن يراها أو أن يصدِّقَها. وهكذا نُخسَ شاول في قلبه.

لقد واجه استفانوسُ أسمى مَجمع عند اليهود آنذاك قوَّةً ورفعةً،

بحيث جمع أعضاءَ من كُلّ الطوائف والشّيَع، ومع ذلك لم يقدروا أن يقاوموه: "فنهض قومٌ من المجمع الذي يُقال له مجمع اللّيبرتينيِّين والقيروانيِّين والاسكندريِّين، ومن الذين في كيليكيا وأسيّا، يحاورون استفانوس. ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمَةَ والرُّوحَ الذي كان يتكلّم به" (أعمال ٦: ٩ و١٠).

في ظلّ هذه الحقيقة، كان هناك قلبٌ معاند وغيور يطمح بأن يكون الأوّل. لذلك، واجه صراعًا داخليًّا عندما رأى استفانوس قويًّا وما من أحدٍ يقدر أن يحاججَه، إذ كان مملوءًا من الحكمة والمعرفة. وكأنّي بشاول يقول في داخله: "هذا موقعٌ استحقُّهُ أنا يا استفانوس وليس أنت."

ما من شكٍّ أن شاول سَمِع الكثير عن المسيح، وكيف أسلم نفسَه ليُصلب على الخشبة التي كانت تُعتَبَر عارًا. وما من شكٍّ أنَّه حاول الاستفسار عن تفاصيل ذلك الحَدَث. وها هو الآن يرى ويسمع أحدَ تلاميذ هذا المَدعو يسوع يقتفي أثارَه: "فكانوا يرجمون استفانوس وهو يدعو ويقول: أيُّها الرَّبُّ يسوع اقبل روحي" (أعمال ٧: ٥٩). هذا هو قلب استفانوس الطَّاهر الذي استطاع أن يطلب الغفران لأعدائه: "ثمَّ جثا على ركبتَيه وصرخ بصوتٍ عظيم: يا رَبُّ لا تُقم لهم هذه الخَطيَّة. وإذ قال هذا رقد" (أعمال ٧: ٦٠). لقد تبيَّن لشاول أنّ استفانوس يؤمن بالمسيح إلى أبعد حدود، ويبدو أنّ غيرته لا تنتهي فقط عندَ الكلام والمجاهرة بالإنجيل، بل تشملُ أيضًا كلَّ تفاصيل حياته وموته. ومن المؤكّد أنَّ شاول عرف حقيقة نفسه بأنّه لا يملك هذا القلب المسامح، ولا تلك القوّة والطمأنينة التي امتلكها استفانوس بتسليم روحه إلى الله

بسلام. إذَّاك انكشف له كم كان استفانوس أقوى منه، الأمرُ الذي أشعره بالفشل أمام هذا البطل. لقد فشل في أن يفرَحَ بإيمانه، وفي الوقت عينه عجز عن أن يُثنِيَ استفانوسَ عن إيمانه. **لأنَّ الإيمان المُخلِّص هو عطيّة من عند الرَّبّ. لذا فالإيمان الذي لا يستطيع أن يَفرَح بالرَّبّ لا يمكن أن يكون منه.**

الشَّبَه الكبير

صلّى استفانوس أن لا يحسبَ الرَّبُّ لِمَن يرجموه هذه الخطيَّة، وكان شاول راضيًا برجمه، بل يبدو أنّه كان أحدَ المسؤولين الأساسيِّين في إصدار حكم الموت بحَقِّ استفانوس. لكنَّ الرَّبَّ يسوع صلّى إلى خاصّته في إنحيل يوحنّا: "من أجلهم أنا أسأل. لست أسأل من أجل العالم، بل من أجل الذين أعطيتني لأنَّهم لك" (١٧: ٩). تُرى هل كان شاولُ واحدًا من الذين صلّى يسوع لأجلِهم؟ أوَليس تحوُّلُ قلبِ هذا المتكبِّر والمعاند والحانق إلى قلبٍ وديعٍ ومتواضع وفرح هو استجابةً لصلاةِ يسوع؟ أوَليس ذلك الانقلابُ الجذريُّ الذي حصل في الطريق إلى دمشق من متعَنِّتٍ ضِدَّ المسيح وأتباعه إلى ساجدٍ على ركبتيه أمام الذي يضطهدُه يقول له بارتعادٍ وحَيرَة: "يا رَبُّ، ماذا تريد يا رَبُّ أن أفعل؟" بفضل صلاةِ المسيح تلك؟!

لقد اقتحمَ الرَّبُّ يسوع حقًّا قلبَ شاول، فبينما كان ذاهبًا في طريق دمشق ليقتل المسيحيِّين ويضطهدَهم ويُنكِّلَ بهم، لاقاه الرَّبُّ هناك وغيَّرَ قلبَه وحياته. فكُلُّ مغريات الحياة لا تستطيعُ أن تُغني أو

أن تُشبعَ قلبَ الإنسان ما لم يلتقِ حقًّا بإلهِهِ. هذا ما أعلمنا به يسوع نفسُه في إنجيل يوحنَّا: "وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" (١٧: ٣).

لقد نزع نورُ المسيح من شاول كُلَّ ظلمةٍ أخفَت عنه الحقيقة.

عندما يتصالح الإنسانُ مع الله بالمسيح تتبلور الرُّؤية أمامه. يقول بولس نفسُه في رسالته الثّانية إلى أهل كورنثوس: "الَّذِينَ فِيهِمْ إِلَهُ هَذَا الدَّهْرِ قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِئَلاَّ تُضِيءَ لَهُمْ إِنَارَةُ إِنْجِيلِ مَجْدِ الْمَسِيحِ، الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ" (٤: ٤). هكذا هو الإنسانُ الذي كان في سباتٍ عميقٍ فَصَحا ورأى الحَقيقة. فعندما يتجدَّد القلبُ يحصل الإنسانُ على هبَةِ التَّوبة والإيمان قبل أن يبدأ صراعُه ضِدَّ الخطيَّة، ثمَّ رَغبُتُه في القداسة العمليّة. هكذا يرى حقيقية جمال يسوع المسيح فينمو منتقلاً من مَجدٍ الى آخر: "لأَنَّ اللهَ الَّذِي قَالَ أَنْ يُشْرِقَ نُورٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، هُوَ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِنَا، لإِنَارَةِ مَعْرِفَةِ مَجْدِ اللهِ فِي وَجْهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (٢كورنثوس٤: ٦). إنّ شاولَ الطرسوسيَّ قد استسلم بين يَدَي الرَّبِّ عندما اخترق كيانَه ليبدأ رحلة الإيمان الطويلة. فبعد اللّقاء تبدأ المعركة ضِدَّ الخطيَّة، إذ قد تحرَّرنا من سيادتِها. **فلا معركة قبل التَّحرير**. لم يكن شاول قبلًا إلاَّ في صراعٍ غيرِ نافعٍ مع نفسه ومع قلبه المُستعبَد، إذ كان ميِّتًا بالذّنوب والخطايا. لكن بعد اللّقاء والتَّحرير والتَّغيير الجَذريّ الذي حصل في حياته، بدأت قصَّتُه مع معركةٍ أكثر جمالًا وسموًّا، معركة ليست للخلاص من الظُّلمة فحسب، إنما لاقتحام أبوابِ الجَحيم.

الفصل

٣

دهشَة اللّقاء

«هناك.. ذاتَ يومٍ التقَتْ فلسفة بولس في الحياة مع الحياةِ نفسِها.»

ليونارد رافينهيل

لقد اتّسَمَت حياة بولس قبل لقائه بالمسيح بالتَدَيُّن والعناد والغيرة. كما أنّه كان مقتنعًا بإصرار بما يؤمن به، مستخدمًا سلطتَه وقوَّتَه لكي يضطهد كلّ من يتبع يسوعَ النَّاصري. وفي حدَثٍ لم يكن يتوقّعُه بينما كان ذاهبًا إلى دمشق مع مرافقيه، في رحلةٍ تستمرُّ حوالَي ستّةِ أيام، كان يسوع بانتظاره في منتصف الطريق. هذه القصّة التي تمَّ الإشارَةُ إليها في كتاب العهد الجديد أربع مرّات، تكشف لنا قدرَةَ اختراق المسيح للقلب الذي يختاره.

كان شاولُ مُصمّمًا على اضطهاد أتباع الطَّريق. لم يكن في حالة صلاة أو مرتابًا من أيِّ أمر، بل كان ذاهبًا بكلّ ثقةٍ ويقين وإصرار لكي

ينكِّلَ بأتباع النَّاصريّ. وفي ذروة هذا التَّصميم، ظهر المسيحُ لشاولَ بنورِهِ العظيم إذ يستذكرُ هو نفسُه ما جرى في سِفرِ الأعمال قائلاً: "رأيت في نصفِ النَّهار في الطَّريق، أيَّها الملك، نورًا من السَّماء أفضل من لمعان الشَّمس، قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي" (٢٦: ١٣).

لقد اخترق هذا النّورُ حياةَ شاول، وجعله يسقط على الأرض فاقدًا للبَصَر. وفي الواقع، جعله يكتشف حقيقة الأمر وأنَّه فاقدٌ للبَصر والبصيرة الرُّوحيَّين. **لم يطلب المسيح إذنَ شاولَ ولا انتظَرَ موافقتَه قبل أن يقتحِمَ حياته**. أليست هذه هي النّعمة التي لا تُقاوم ! هذا اللّقاء غيرُ المتوقّع والذي لم يكن شاول ليرغبَ به، إنما يُظهرُ كيف أنّ الله يستطيع أن يغيِّرَ الإنسانَ مهما تقسَّى أو تكبَّر. وهذا ما لا يتناسب مع كثير من الدَّعوات التَّبشيريَّة الخجولة التي يتمُّ عرضُها على النَّاس والتي لا تعكس هذه الحقيقة المهمّة، بل تجعل من الله عاجزًا ومُنتظرًا قرارَ الإنسان المُستقلَّ عن اختيار الله.

صوت الله

اخترق صوتُ الله قلبَ شاول، عندما سمع يسوع يقول له: "شاول، شاول لماذا تضطهدني؟" إنّه الصَّوت الحنون والمُحبّ، إلاّ إنّه أيضًا صوتٌ مليءٌ بالجلال والعظمة. لقد غيّر هذا الصَّوتُ حياة شاول برُمَّتِها في أبعادها الفكريّة والعاطفيّة والرُّوحيَّة، وبسرعةٍ فائقة اكتشف أنّه على خطإ في معتقداته وتوجُّهاته ورغباته ومساعيه، وأنَّه يسير في الطّريق الخاطئ. وبصوتٍ شبهِ مرتعد، مِلؤُه الحيرة والذّهول سأل: "من

أنـتَ يـا سـيّد؟" لقـد أراد أن يعـرف مَـن هو صاحب هـذا النّور الـذي كلَّمَه بكلمـاتٍ هـزَّت كيانـه وأوقعتـه أرضًـا وملأت المـكان بالرَّهبـة، إذ لم يكن ممكنًـا مـن مقاومة هذا الشَّـخص الذي اقتحـم حياته. أمَّـا المفاجأة فجاءَت مـن خـلال الجـواب غير المتوقَّع، لا بل غير المُسـتَحَبّ على مسـمع شـاول: "أنـا يسـوعُ النَّاصـريُّ الذي أنت تضطهـده" (أعمال ٢٢: ٨). يـا للصَّدمة! هو يسـوع النَّاصـريّ الـذي ظنَّـه ميتًـا! وخصوصًا عندما اكتشـف فـي لحظةٍ غير متوقّعـة أنَّ كلَّ فعلـه مـن أجـل اللـه، إنّمـا كان ضدَّه.

فالـرَّبُّ بـادر بالتَّعريـف عـن هويَّتِـه لشـاول، وبالكشـف ليـس عـن صفاتـه الإلهيّـة التي ظهـرت أصلًا بأسـلوبِ اللّقاء، بل عن صفاته الإنسـانيَّة أيضًـا، كمـا لـو انّـه يقـول لـه: "هـذا أنـا يسـوع الإنسـان الـذي هزِئتُـم بـه وظننتُـم أنَّكـم نجَحتـم بقتله، وهـا أنتم تحاولـون أن تُتَمِّمـوا المهمّة بقتل أتباعـه. إنّنـي حَـيٌّ كمـا تـرى وتسـمع، ولا يُمكِنُـكَ أن تقاومَنـي مـن خلال اضطهـاد أحبَّائي."

لقـد أضـاف المسـيح على ما قاله لشـاول هذه العبـارة: "صعبٌ عليك أن ترفـسَ مناخس" (أعمال ٩: ٥).

يُسـتَعمَل المنخـسُ بقصـد دفـع الثـور لكي يمشـي إلى الأمـام لِحراثة الأرض، وعندمـا يحـاول أن يقـاومَ ضاربًـا رجليـه إلـى الـوراء، يؤذي نفسَـه بالمنخس.

أتظنُّـون أنَّـه يوجـد مـن يسـتطيع أن يقـاومَ يسـوع النّاصـريّ؟ فعندما يُظهـرُ يسـوع مجـدَه لإنسـان، لا بدَّ أن يستسـلم. فالـرَّبُّ يَظهَر بنـوره فيما

الإنسانُ يكتشف ظلامَه. ومن دون نور المسيح، كُلُّ ما يظنُّه الإنسان وكلُّ ما يعرفه ليس سوى معرفةٍ بشريّةٍ محدودة وخاطئة لا يُمكن أن تُبنى عليها الحياة. لقد غيَّرَ المسيحُ طريق شاول، فتحوّل من مُضطَهِدٍ إلى مُضطَهَد.

عندما يختبر الإنسانُ النّورَ الإلهيَّ ويتجاوب معه، عندئذٍ فقط يختبر الإيمانَ وتحصل التوبة عن حَقٍّ نتيجة ولادته الجديدة التي تمنحُه البصيرة الرُّوحيَّة.

يقودُ مثلُ هذا اللّقاءِ الإنسانَ إلى اختبارعمل المسيح الحقيقيّ على الصَّليب من أجله. فهو الذي يُعطي معنًى للحياة، وهو الذي يُغيّرُها ويَهديها إلى طريق الحَقّ. إذًاك لا تعود مُجرَّدَ حياةٍ مليئَةٍ ببعض الأهداف والتطلّعات الأرضيَّة التي لا تتَخَطّى على الأكثر المِئةَ سنة، بل تتحوّل إلى حياةٍ ذات أهداف أبديّة وسامية، تعمل من أجل أمور أبديَّة لا من أجل أمور وقتيّة زائلة، بحيث تنظر نحو أفقٍ بعيدٍ ليس فيه نهاية. لقد استخدم بولس قصّة لقائه بيسوع مرّاتٍ عديدةً لكي يخبرَ الجميع عمّا حدث معه، ولهذا دلالة واضحة على أنّ هذا الحدَثَ ليس مجرّدَ مرحلة انتقاليّة في حياته، بل كان بداية تغييرٍ كاملٍ وجذريّ.

مصدر الثَّبات

كثيرًا ما نسمع عن أشخاصٍ عاشوا في الظَّاهر لفترةٍ مع الرَّبّ، إلاّ أنَّهم سرعان ما عادوا إلى العالم. أمَّا الحقيقةُ الكامنة وراءَ هذا الأمر، هي أنّهم لم يحصلوا على لقاءٍ خاصٍّ مع المسيح. فهم إمّا مؤمنون بالفكر

فقـط، أو تأثّـروا بسـبب أجواءٍ عاطفيَّـة، أو لأنَّهم قرَّروا يومًا إتّباعَ المسـيح لأنَّ هـذا أفضـل لهـم لأسـباب متنوِّعة. فأمرُ خلاصِهِم لم يكـن من عند الله، بـل جـاءَ من أنفسِـهم أو بسـبب تأثيـراتِ المجتمع المسـيحيّ مـن حولهم. وهـذا تمامًـا معاكـس لمـا حصل مع بولس الرَّسـول الـذي قـال: "وأعرّفُكم أيُّهـا الإخـوة الإنجيـلَ الـذي بشّـرتُ بـه، أنّـه ليس بحسـب إنسـان. لأنّي لم أقبلـه مـن عنـد إنسـان ولا عُلّمْتُـه. بل بإعلانِ يسـوعَ المسـيح" (غلاطية ١: ١١ و١٢).

إنَّ اللّقـاءَ الحَقيقـيَّ مع المسـيح يأتـي من خلال مبادرَةٍ شَـخصيَّةٍ منه، حتـى ولـو ظهـر لنـا الأمرُ بخلاف ذلـك. فالله هـو وراءَ كلِّ ما يحـدُثُ معنا، وهـو وراء ترتيـب كلِّ ظروفنـا. عندمـا يُعلـن المسـيح نفسـه لأيّ إنسـان، يختبـر هـذا الأخيـرُ حيـاة جديـدة لـم يكـن يعـي وجودهـا: "وَهَـذِهِ هِـيَ الْحَيَـاةُ الأَبَدِيَّـةُ: أَنْ يَعْرِفُـوكَ أَنْـتَ الإِلَـهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُـوعَ الْمَسِـيحَ الَّـذِي أَرْسَـلْتَهُ" (يوحنَّـا ١٧: ٣). من يجد المسـيحَ الذي هـو الباب والطّريق ويدخـل فيـه، إذَّاك لا مجـال للعـودة إلى الوراء. لا شَـكَّ أنّه يوجد تعبٌ في الحيـاة، يوجـد فشـلٌ وربّمـا وقـوع فـي الخطيئة بسـبب الضَّعـف والحرب الرُّوحيَّـة التـي قـد تعتـرض السَّـبيل، إلاّ أنّه لا يمكن أن يدخلَ المسـيح إلى حيـاة أحدهـم ثـمَّ يعـود ليترُكَـه. فهبَـةُ الخـلاص ليسـت لعبة بيد الإنسـان بحيـثُ يأخذهـا متـى يريـد ويرمـي بهـا متـى يضجَـرُ منهـا. بناءً علـى هذه الحقيقـة، مـا مـن شَـيءٍ أوقـف بولس عـن إكمال الدَّعـوة التـي أخذها من خـلال هـذا الإعـلان، ذلـك لأنّه أخـذ الخلاص مـن قبَلِ الـرَّبِّ شـخصيًّا. فأيُّ شَـيْءٍ لا يأتـي مـن يسـوع لن يـدوم، إنَّمـا سـيظهر زَيفُه مع الوقت بسـبب الظـروف والصِّعـاب والآلام. فهنـاك دائمًـا مـن التقى بيسـوع حقًّـا، وهناك

مـن يظـنّ ذلك.

رسول النِّعمة

لقـد عُـرف بولـس برسـولِ النِّعمة. فهو الـذي قال: "لكن لمّا سَـرَّ اللـهَ الذي أفرزنـي مـن بطـن أمِّـي، ودعانـي بنعمتِـه، أن يُعلنَ ابنَـه فيَّ لأبشّـر به بين الأمـم، للوقـت لـم استشـر لحمًـا ودمًـا" (غلاطيـة ١: ١٥ و١٦). فهـو عـاش وعلّـم واتّـكل علـى النِّعمـة الإلهيّـة. هـذه النِّعمـة التـي أدركهـا يـوم لقائـه مـع المسـيح، حيث اكتشـف عجـزَه التامّ عـن الوصول إلـى اللـه، وأنّ الأمر إنمـا منـوط بنزول اللـه إليه، على الرّغـم من خطيّته. هـذه الحقيقة رافقته طيلـة أيَّـام حياتـه وخـلال خدمتـه، إذ إنّه لم يعتبـر أنَّ خلاصَـه كان بالنِّعمة فقـط، بـل اعتبـر أن مصدر مسـيرته برُمَّتِها وكلَّ خدمتِـه كان بفضل النِّعمة، إذ قـال: "ولكـن بنعمـة اللـه أنا مـا أنا، ونعمتُـه المعطاة لي لـم تكن باطلة، بـل أنـا تعبـت أكثـر منهم جميعهـم، ولكن لا أنا، بـل نعمة اللـه التي معي" (١كورنثـوس ١٥: ١٠). يـا لـه مـن اعتـرافٍ واضـحٍ ويقينـيٍّ، إذ إنَّ خلاصَـه وخدمتـه ونجاحـه لا يَرتبطـونَ بقدراتِـهِ أو رغباتـه أو حكمتـه، بـل مـا هـو عليـه ليـس بغَيـرِ فضلِ نعمـة الله التـي اختـارت وأرادت ودَعَـت وبرَّرت.

كتب في رسـالة أفسُـس يقول: "بسـبب هذا أنا بولس، أسـير المسـيح يسـوع لأجلكـم أيُّهـا الأمم، إن كنتم قد سـمعتم بتدبير نعمـة الله المعطاة لـي لأجلكـم" (٣: ١ و٢). لقـد تمسّـك بولـس بنعمة الله التـي حصل عليها، ولـم يعتمـد يومًا علـى قدراته الشَّـخصيّة ولا على علمِـه، ولا على مواهبه. لهـذا ثبـت، ثمَّ أكمَلَ العمل ونجح. إنَّ سِـرَّ كلِّ مؤمـن حقيقيٍّ ينمو ويتقدّم

على الرّغم من كلّ الظروف الصَّعبة يكمن في مدى اتّكاله على نعمة الله لا على الجسد أو أي شَيءٍ آخر.

إختيار الله

لقد سبق واختار شاول طريقَه كـ "مضطَهِدٍ للكنيسة"، إلاّ أنّ اختيارَ الرَّبّ له كان مختلفًا ومميَّزًا. لقد غلب اختيارُ الرَّبِّ على اختياره إذ أصبح شاول الطرسوسيُّ، بولس الرَّسول، أسيرَ نعمَةِ المسيح: "هذا لي إناءٌ مختارٌ ليَحملَ اسمي أمامَ أممٍ وملوكٍ وبني إسرائيل" (أعمال ٩: ١٥). هذا ما قاله الرَّبُّ لحنانيا الذي كان يرى شاول مجرّد شخصٍ ضالٍّ يضطهد المسيحيِّين من دون أن يوجد في قلبه أيَّةُ رغبةٍ في أن يراجع معتقداته أو أن يبحث عن الحقيقة. لم يسمع عنه يومًا أنّه حاول أن يستفسر أو أن يبحث عن حقيقة ما حدث في أوروشليم بعد صلبِ ذاك النَّاصريّ، بل كان واضحًا للجميع غيرتُه ورفضُه الشَّرس للمسيحيّين؛ فكان أن تدخَّل الرَّبُّ بطريقةٍ معجزيَّة مع حنانيا لإقناعه بالذَّهاب إليه.

لقد اختار الرَّبُّ هذا الإنسان بشكلٍ خاصٍّ لكي يكون شاهدًا له، ولكي يفتح بواسطته عيونَ العمي ليعودوا إلى النّور الحَقيقيّ الذي هو المسيح يسوع، وبالمقابل احتمل بولس كلَّ تبعات الخدمة وصعوباتِها ولم يخجل بالإنجيل، متمسِّكًا بهذا الاختيار الإلهيّ. فمن كتاباته نعلم كيف أدرك أنَّ اختيارَه يعود إلى يسوع الذي قال له: "قمْ وقفْ على رجليك، لأنّي لهذا ظهرت لك، لأنتخبَكَ خادمًا وشاهدًا بما رأيت وبما سأظهر لك به" (أعمال ٢٦: ١٦).

عندما يظنّ الإنسان أنَّ قصَّة خلاصه هي قصَّتُه هو، وأنَّ الخيارات هي خياراتُه، سيُتابع مسيرَتَه الرُّوحيَّة بالنَّمَط نفسِه، فيذهب إلى الكنيسة التي تريحُه ويختار الخدمة التي ترضيه، ويتّخذ المواقف التي تُناسبه. أمَّا الرَّسول بولس فقد قبِل دعوة الرَّبّ له للآلام والتَّعَب من أجل المسيح، إذ قبلها كتدبيرٍ وترتيبٍ من قبل الذي أحبَّه. هذا المستوى من الوعي الرّوحيِّ، جعله يخضع للمسيح وقصدِه، لا لأهوائِه ورغباته وراحته. **فحتى ولو كانت رغباتُنا في مضمونها جيّدة، تُصبح سيّئَةً إن لم تكن تعكس مشيئَة المسيح المسبقة وخطَّتَه لنا**.

للإنسان مِلْءُ الحُريَّة في أن يختار من يريد أن يُحبّ، ولكنَّ بولسَ صمَّم أن يبادل الحبَّ لمن اختاره وأحبَّهُ أولًا. عندما يدخل المسيح إلى حياة إنسان، يُعلنُ له عن محبَّتِه أوَّلًا، وبالتّالي تتبلور الدَّعوة وتتحصَّن داخل علاقة الحبّ المتبادلة هذه.

يؤكِّد اختبارُ الرَّسول بولس أنَّ لا مسيحيَّة من دون لقاءٍ شَخصيٍّ مع المسيح المُقام من بين الأموات. فالتَّغييرُ الحَقيقيُّ والجَذريُّ لا يأتي إلّا من النُّور السَّاطع الذي يشعُّ من شخص المسيح الحَيّ، "بنورك نرى نورًا."

الفصل

٤

الإستعداد

«لماذا يُدعى الرَّسول بولس إناءً مختارًا؟ بكلّ تأكيد، لأنَّه مُدَّخِرٌ للشّريعة والأسفار الإلهيَّة.»

جيروم

إنّ دراستنا لسيرَةِ الرَّسول بولس وأقواله تساعدنا كثيرًا أن نفهم المسيحيّة بذاتها. هذا هو الرَّسول الذي استخدمه الرَّبُّ بقوّةٍ لنشر الإنجيل، واضعًا إيّاه أمامنا كنموذجٍ واختبارٍ حَيٍّ يمكن أن يُعاش. فكلّ ما علّمَه بولس هو وَحيٌ من الله، وليس مجرّدَ تعاليم بشريّة. ومن الواضح أنَّ الله قد اختاره، وهذا الاختيار هو ثابت وأصيل. فبعدما كان شاول في خِضّم المعركة في وجه المسيحيِّين، أصبح بعد لقائه بالمسيح في خضّم المعركة إلى جانبِهم.

من اللّافت، أنَّه على الرّغم من هذا التَّميُّز، لم ينطلق بولس في

رحلاتـه التبشـيريّة مباشـرةً بعـد تجديـده، بـل ثمَّـة مرحلة مهمّـة جدًّا في حياتـه يَغفـلُ عنهـا الكثيرون، وهـي مرحلة الاسـتعداد.

لقـد دامـت هـذه المرحلة حوالَي عشـر سـنوات، فيها كان الـرَّبُّ يُعدّ بولـس لكـي يبـدأ بخدمتِـه الصَّعبـة لكـن المُثمـرة. يسـتخدم الـرَّبُّ هـذه المرحلـة الإعداديّـة لكـي يُحضِّـرَ خدّامه للعمـل كما ينبغي، وكما تسـتحِقُّ خدمـة الـرَّبّ، بحسـب إرادتـه ومشـروعه. أوَليس هـذا ما فعله يسـوعُ مع تلاميـذِه الذيـن عاشـوا معـه وتعلَّمـوا منـه بشـكلٍ مباشـر كلَّ مـا يجب أن يتعلّمـوه اسـتعدادًا للخدمـة. فهـو لـم يَختَرْهـم ويُطلقْهـم للعمل مباشـرةً، بـل قضـى معهـم الأوقـات الكثيـرة مُدرِّبًـا إيَّاهـم ومُشـرِفًا علـى سـير ذلك التدريـب ومُقيِّمًـا كلَّ خطـوةٍ تخوِّلُهـم أن يحملـوا المشـعل. **إنَّ شـخصيّاتِنا هـي أهـمُّ بكثيـر فـي الخدمة مـن قدراتنـا ومواهبنـا.** هذه نصيحـة مهمَّة لمـن يبتغـون الانخراط بسـرعة فـي الخدمة وعمَـلِ الرَّبّ دون الاسـتعداد المُسبَق.

اسـتمرَّ بولـس بعـد لقائـه المباشـر بالمسـيح فـي خلـوَةٍ لثلاثـة أيّـام صائمًـا يُصلّـي. مـن الواضـح أنَّـه احتـاج لمثـل هـذا الوقـت للتأمّـل قبـل أن ينطلـق فـي حياتـه المسـيحيّة. بعدهـا جـاءَ حنانيـا إليـه، فعـادَ بصـرُه مـن جديـد وامتلأ مـن الـرّوح القـدُس واعتمـد قبـل أن يلتقـي بالتَّلاميـذ فـي دمشـق. هنـاك كان ينمـو معهـم كلَّ يـوم فـي النِّعمـة. هو لم يسـتغلَّ حقيقـةَ لقائـه بالمسـيح وظهورِهِ له شـخصيًّا، وإنّما المسـيحُ مَـن دعاه إلى الخدمـة بشـكلٍ مباشـر. كمـا إنَّـه لـم يـدَّعِ بأنَّـه لا يحتـاج إلـى تلمـذة، بـل قبِـلَ بـكلِّ تواضـع أن يتعلّـم مـن التلاميذ الآخريـن ويقضي الوقـت معهم.

كتب عنه لوقا: «وللوقت جعل يكرزُ في المجامع بالمسيح: أنّ هذا هو ابنُ الله» (أعمال ٩:٢٠). لقد أصبح كارزًا ومبشّرًا بيسوع المسيح بعد أن أكمل مرحلة الاستعداد.

العربيَّة

بعد اختبار التَّغيير الكبير انطلق بولس إلى العرَبيَّة: «ولكن لمَّا سَرَّ اللهَ الذي أفرزني من بطن أمّي، ودعاني بنِعمته، أن يُعلنَ ابنَه فيَّ لأبشِّرَ بين الأمم، للوقت لم أستشر لحمًا ودمًا، ولا صعدت إلى أورشليم، إلى الرُّسُل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العرَبيَّة، ثمَّ رجعت إلى دمشق» (غلاطية ١: ١٥ -١٧). بمقارنتِنا للنّصوص التي تذكر تحرُّكات الرَّسول، ندرك أنّه بقيَ قرابةَ ثلاث سنواتٍ في العرَبيَّة من دون أن نعرف عَمَّا فعله بالتَّحديد هناك، لذا تُسمّى هذه بالسَّنوات الصَّامتة، إذ يبدو أنَّها تميَّزت بعلاقةٍ شخصيَّةٍ وفرديّة بينه وبين الرَّبّ. فهو لم يكتفِ بفترة استعداد مع التلاميذ فقط، بل قضى وقتًا من الاستعداد بشكلٍ شخصيٍّ عند أقدام المصلوب. وهكذا حقّقَ التّوازنَ المطلوب في النمُوِّ الرُّوحي. فإنَّ أيّ إنسان يريد أن يخدمَ الرَّبّ، لا بدّ أن يمتلِئَ منه أوَّلًا ويفهم مشيئته العامَّة والخاصَّة من خلال قضاء وقتٍ فرديٍّ مع الرَّبّ. هذا بالإضافة إلى التلمذة والتعليم والشَّركة مع باقي المؤمنين. **حتى نتعلَّم من الكلمة المكتوبة روحيًّا، وليس فقط أكاديميًّا، علينا أن نقضيَ الوقتَ الأطول مع الكلمة الحيَّة.** هذا لا يعني أنَّ بولس لم يبدأ خدمته العلنيَّة، بل كان يشهد بالتأكيد ويُبشِّر، إنّما لم يكن قد انطلق في رحلاتِهِ التَّبشيريَّة بتفويضٍ من الكنيسة. **إنَّ الشَّهادةَ عن عمل المسيح**

لا تَحتاج إلى ثقافةٍ واسعةٍ وعلوم مُعيّنة وتدريبٍ محترف، بل يكفي أن يكون عندنا اختبارٌ حقيقيٌّ مع المسيح.

أورشليم

عاد بولس إلى دمشق لكي يبدأ خدمته، لكن هناك تشاوروا عليه كي يقتلوه، فرجع إلى أورشليم وبقيَ هناك خمسة عشر يومًا، حيث رأى بطرسَ ويعقوبَ أخا الرَّبّ. أما الأمر اللّافت هنا، فهو أنّ الرُّسل خافوا منه في بادئ الأمر، ولم يكونوا مستعدّين بعد لقبوله. فهو ذاك الرَّجُل المعروف باضطهاده للمسيحيِّين وملاحقتِهم واقتيادهم إلى السُّجون.

وصف البشير لوقا هذا الحدَث بالقول: «ولمّا جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتّلاميذ، وكان الجميع يخافونه غير مُصدّقين أنّه تلميذ. فأخذه برنابا وأحضره إلى الرُّسل، وحدّثهم كيف أبصر الرَّبّ في الطَّريق وأنّه كلّمه، وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع» (أعمال ٩: ٢٦ و٢٧). فبينما خاف منه الجميع، كان برنابا الصَّديق المُشجّع الذي عرّفَه إلى التّلاميذ وأكَّد لهم أنّ بولس أصبح واحدًا منهم. وهكذا التصق بولس بالتّلاميذ، وبدأ يدخل ويخرج معهم إلى الهيكل ليبشّر. إلاّ أنّه سرعان ما واجه أيضًا محاولاتٍ بالقتل: «وكان يخاطب ويباحث اليونانيِّين، فحاولوا أن يقتلوه» (أعمال ٩: ٢٩). هذا ما جعل الإخوة يعيدونه إلى طرسوس مسقط رأسه، إذ أنّ المشاكل كانت تلاحقه، ليبقى هناك قرابةَ خمس سنوات، يُبشّر ويعلّم ويجاهد في نشر الإنجيل.

كان إصرارُ هذا الرَّجل على لقاء التّلاميذ الأقدم منه في حياة

الإيمـان موضـعَ تقديـرٍ عنـد الجميـع. فهـو أراد أن يؤكِّـد أنَّ الإنجيـل الذي سـينادي بـه هـو إنجيـلُ تلاميـذ المسـيح الإثنـي عشـر نفسُـه. كان هدفـه واضحًـا فيمـا قالـه فـي رسـالة غلاطيـة: «فَإِذْ عَلِـمَ بِالنِّعْمَـةِ الْمُعْطَـاةِ لِـي يَعْقُـوبُ وَصَفَـا وَيُوحَنَّـا، الْمُعْتَبَـرُونَ أَنَّهُـمْ أَعْمِـدَةٌ، أَعْطَوْنِـي وَبَرْنَابَـا يَمِينَ الشَّـرِكَةِ لِنَكُـونَ نَحْـنُ لِلأُمَـمِ، وَأَمَّـا هُـمْ فَلِلْخِتَـانِ.» (٢: ٩). فمنـذ بدايـة خدمتـه ثبَّـت الحقيقـة التـي آمـن ونـادى بهـا ودافـع عنهـا: «وَلَكِـنْ إِنْ بَشَّـرْنَاكُمْ نَحْـنُ أَوْ مَـلاَكٌ مِنَ السَّـمَاءِ بِغَيْـرِ مَا بَشَّـرْنَاكُمْ، فَلْيَكُـنْ «أَنَاثِيمَا»» (غلاطيـة ١: ٨). **إنَّ الإنجيـل، لا يَتَعـدَّل ليلائِـمَ أسـلوبَ المُبَشِّـر ولا حاجـةَ المُبَشَّـر.**

شدائدُ وصعاب

عندمـا أوفـدت كنيسـة أورشـليم برنابـا لكي يتفقّـد المؤمنين الجُـدُد، أخذ معـه بولـس وانطلقـا إلـى أنطاكيـا: «فحـدث أنّهمـا اجتمعـا فـي الكنيسـة سـنة كاملـة وعلّمـا جمعًـا غفيـرًا، ودُعـي التّلاميـذ مسـيحيِّين فـي أنطاكيـا أوَّلًا» (أعمـال ١١: ٢٦). هنـاك اشـتهرت التَّسـميةُ (مسـيحيِّون) مـن خـلال خدمـة برنابـا وبولس. وعندمـا أرادت الكنائس في تلك المنطقة أن تُرسـل تقدِمـة مسـاعدة ومحبَّـة لإخوتهـم الفقـراء فـي اليهوديّة وأورشـليم قاموا بانتخـاب برنابـا وبولـس لتنفيـذِ تلـك المهمّـة. هكـذا بـدأت تلمـع خدمـة بولـس فـي أنطاكيـا، وبسـرعة أصبـح هـذا الرَّجُل مَوضِـعَ ثقـةٍ واحترام من الأكثرين.

لكـن علـى الرّغم مـن اسـتعداداته التـي ذكرناهـا آنفًا، وقبول الرُّسـل

في أوروشليم له، إلا أنَّ الضّغوطات الكثيرة ظلَّت تلاحق بولس من الدّاخل والخارج، إذ حاولوا قتله في أورشليم ودمشق. وعندما حازَ على ثقة التلاميذ والرُّسل لاحقه بعض الأشخاص من كنيسة أورشليم الأمّ، وراحوا يشيعون أخبارًا أنّ بولس يعلّم إنجيلًا آخر، وهو ضدّ النّاموس. هذا الإتّهام رافقه طويلًا في خدمته مع التشكيك المُستمرّ برسوليّته من قبل أعدائه، وحتى أحيانًا من الذين ربحَهم للرَّبّ. فبسبب كثرة الشّدائد والصِّعاب التي تعرّض لها بالإضافة إلى ضُعف جسده، لم يجدِ البعضُ فيه صورة الرَّسول العظيم المُجترح للعجائب. أما ردُّهُ على الإتّهام الأوَّل فكان واضحًا إذ كرَّره في أكثر من رسالة: «ثمَّ بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضًا إلى أورشليم مع برنابا، آخذًا معي تيطس أيضًا. وإنّما صعدت بموجب إعلان، وعرضتُ عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالانفراد على المعتبرين، لئلّا أكون أسعى أو قد سعيتُ باطلًا» (غلاطية ٢: ١ و٢). وبخصوص موضوع التشكيك برسوليَّتِه، فبعد أن سرد بعضًا من التجارب والضِّيقات التي مرّ بها، قال: «إِنْ كَانَ يَجِبُ الاِفْتِخَارُ، فَسَأَفْتَخِرُ بِأُمُورِ ضُعْفِي» (٢كورنثوس ١١: ٣٠).

واجه بولس في الخارج الاضطهاد والتَّعذيب، أمَّا في الدَّاخل فقابل التشكيك بحقيقة دعوته، لكنَّه دافع بحكمَةٍ وشجاعَةٍ ومن دون مساومة على تعليم النِّعمة الذي شكَّك به البعض بسبب ناموسيَّتِهم. هذه المواجهات جعلته يكتب أجمل الأطروحات عن النِّعمة، بحيث قدَّم بقوَّة ومعرفة عميقة إنجيل الحَقّ للأمم ولليهود: «لكن لم يُضطَرّ ولا تيطس الذي كان معي، وهو يونانيّ، أن يختتن. ولكن بسبب الإخوة الكذبة المدخلين خفيةً، الذين دخلوا اختلاسًا ليتجسّسوا حريّتَنا التي

لنا في المسيح كي يستعبدونا. الذين لم نُذعن لهم بالخضوع ولا ساعة، ليبقى عندكم حَقُّ الإنجيل» (غلاطية 2: 3 -5). فهو لم يُستدرَج للخضوع للكذبة الذين غيّروا الإنجيل وأضافوا عليه أعمالَ التّبرير، مهما كان مصدرها.

ثباتٌ واستقلال

كان لبولس اختبارٌ استثنائيّ ومثاليّ مع المسيح. فهو المثقّف بالعلوم ويعرف الشَّريعة جيّدًا، ومع هذا نرى كيف أعطى مكانًا واحترامًا للمُعتبَرين، أي لبطرس والرُّسل الذين قبله. لذلك أعطوه يمين الشَّركة، لكن عندما أخطأ بطرس واجهه بصراحة: «ولكن لمَّا أتى بطرس إلى أنطاكية قاومتُه مواجهة لأنَّه كان ملومًا» (أعمال ٢: ١١). فهو أكّد للجميع أنَّ باستطاعته الاستمرار حتّى من دون بطرس والرُّسل، لأنَّه كان يمشي مع المسيح نفسه. هكذا كان يقاوم كلَّ رياءٍ وخطيّة بغضِّ النَّظر عن مصدرها. لم يكن بولس مُستعبدًا لأحد، بل كلّ ما يهمّه هو الحفاظ على حَقِّ الإنجيل وإعلانه كما هو بالحقيقة. **لقد كان خادمًا للجميع، إنَّما عبدًا فقط للمسيح**. فتعليم المسيح عنده كان يعلو فوق أي تقليدٍ أو ممارسةٍ مهما كان مصدرها: «أَفَأَسْتَعْطِفُ الآنَ النَّاسَ أَمِ اللهَ؟ أَمْ أَطْلُبُ أَنْ أُرْضِيَ النَّاسَ؟ فَلَوْ كُنْتُ بَعْدُ أُرْضِي النَّاسَ لَمْ أَكُنْ عَبْدًا لِلْمَسِيحِ» (غلاطية ١: ١٠).

الأمانة في القليل

نجح بولس الرَّسول في أنطاكيا قبل أن ينطلق من هناك إلى العالم.

أليس هذا ما قاله يسوع في أحد الأمثال فيما يخصُّ الخدمة وسِرِّ توسُّعِها: «الأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ أَمِينٌ أَيْضًا فِي الْكَثِيرِ» (لوقا ١٦: ١٠). نلاحظ كيف واجه بولس الاضطهاد من داخل الكنيسة أوَّلًا، وكيف تعلّم الصَّبر والتواضع وأسلوب التَّعامل مع الأمر. فلا يمكن لشخصٍ أن يذهب ليبشّرَ العالم ويقوم بخدمة عظيمة، فيما فشلَ داخل كنيستِهِ في خدمةٍ بسيطة. ومع أنّ بولس نال إعلاناتٍ شخصيّةٍ من الرَّبّ، إلاّ أنّه انطلق من الكنيسة ولم يتَعَدَّها مطلقًا: «وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ، فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا» (أعمال ١٣: ٢ و٣).

فمع أنَّه لاقى الشُّكوك والرَّفض من بعض الأشخاص في الكنيسة، إلّا أنَّ ذلك لم يثنِهِ عن الإنطلاق ببرَكَة الكنيسة. فالرَّبُّ يعمل على تشكيل وتدريب المؤمن في كنيسته أوَّلًا ومن خلالها. لقد كان الاستعداد أمرًا مهمًّا جدًّا في حياة الرَّسول، من أجل ذلك جاء الثمر الكثير.

الفصل

0

مبادئ الخدمة

«القلب الصَّادق يُحبُّ الحَقّ.»

آرثر بينك

خـدم كُلٌّ مـن الرَّسـول بولـس وبرنابا فـي أيقونيّة زمانًا طويـلًا حيث كانت تجـري علـى أيديهمـا آيـات وعجائـب. لكنَّهمـا انتقـلا بعدهـا إلـى مدينـة لسـترة ليبشّـرا بالإنجيـل حيـث التقيـا برجـلٍ عاجـز الرِّجليـن ومُقعـد مـن بطـن أمِّـه؛ لـم يمـشِ قـطّ. وبإرشـاد مـن روحِ الـرَّبّ، رأى بولـس أنَّ هـذا الرَّجُـل يملـك قسـطًا مـن الإيمـان فـي قلبه، فقـال له بصـوتٍ عظيـم: «قمْ علـى رجليـك مُنتصِبًـا»، فوثب وصار يمشـي. بذلـك أكّد الرَّسـول من خلال هـذه المعجـزة أمـام أهـل لسـترة الوثنيِّيـن، امتلاكـه للموهبـة الرَّسـوليَّة التـي ثبَّتـت رسـالته. فالموهبـة الرَّسـوليّة هـي التـي تبرهـن أنَّ الرِّسـالة الجديـدة التـي يحملُهـا المُرسـل مصدرُهـا اللـه الحـيّ. هـذا الأمـر لـم يعد

لـه حاجـة فـي أيَّامنـا هـذه، إذ لا يوجـد رسـالة جديـدة غيـر التـي أعلنهـا الإنجيـل، كمـا لا يوجـد إعـلانٌ جديـد غيـر الـذي أُعلن بواسـطة كلمـة الله والرُّسـل. فما نُبشِّـر به اليوم هو اسـتمرار لهذه الرِّسـالة نفسِـها التي تَثَبَّتَت لنـا بالعجائـب نفسِـها تلـك. فبيـن أيدينـا الآن كلمـة اللـه التـي تَثَبَّتَت منذ عصـر الرُّسـل، ومـن خلالهـا يمكنُنا مقارنة كلّ ما نسـمعه اليـوم لكي نتأكّد إن كان يوافـق الكلمـة أم لا. لكـنَّ هـذه الحادثـة المُتميّـزة كشـفت الكثير مـن مبـادئ الخدمـة التـي خدمها بولس رسـول النِّعمـة، والتـي تصلح لكلِّ زمـان ومكان.

قوَّة روحيَّة

لقـد كانـت مُعجـزة شـفاء هـذا المُقعـد حقيقيّـة، ولـم تقتصـر علـى بعض الانفعـالات النفسـيّة بـل أبرأت فعـلًا مرَضًا عضويًّـا أكيدًا. كان هـذا الرَّجل عاجـز الرِّجليـن مـن بطـن أمّه ولـم يمشِ قطّ. هـذا ما لا نراه فـي كثير من المعجـزات المزعومـة المزيّفـة التي تقـوم على بعض العـروض والحركات التي تكشـف سـريعًا عـدمَ صدقيّتِها. فكلمـة الله تخبرنا كيف تمتّع الرُّسـل فـي الكنيسـة الأولـى بهـذه الموهبـة، إذ كانـوا يقيمـون أمواتًـا ويشـفون مفلوجيـن مـن دون أيِّ شَـكٍّ أو إمكانيّـة للخـداع. كان الأمـر واضحًـا إلـى درجـة ظـنّ فيهـا أهـل لسـترة أنّ بولس وبرنابـا همـا تجسُّـدٌ لآلهَتِهِم التي يعبدونهـا. فلقـد كانـت المعجـزة واضحة من دون مُشَـجِّعاتٍ أو موسـيقى أو أيَّـة تأثيـرات نفسـيّة. فالحضـور ظـنَّ أوَّلًا أنّ الآلهـة تشـبّهوا بالنّـاس إذ تجسّـدوا علـى شـكل رجال طالبين مسـاعدة النَّـاس الذين لم يسـاعدوهم، وظنّـوا أنّ بولـس وبرنابـا هما زفـس وهرمس.

لـم تعـد لدينـا اليـوم الحاجـة لكـي نبرهـنَ علـى صحَّـةِ إنجيلنـا بالمواهـب الرَّسـوليّة، التـي لـم تعـد موجـودة أصـلًا بسـبب عـدم وجـود رُسـل مُرسـلين مـن قبل الرَّبّ مباشـرة، كمـا كان الحال آنـذاك. كما لم يعد هنـاك حاجـة إلـى أن نُبرهـنَ على ما قد تبرهـن، وأنّ ما نملكـه بين أيدينا مـا هـو إلاّ كلمـة اللـه الحقيقيّة، فهـي تثبَّتت مرَّةً وحتـى النّهايـة: «لأَنَّهُ إِنْ كَانَـتِ الْكَلِمَـةُ الَّتِـي تَكَلَّـمَ بِهَا مَلاَئِكَـةٌ قَدْ صَـارَتْ ثَابِتَةً، وَكُلُّ تَعَـدٍّ وَمَعْصِيَةٍ نَـالَ مُجَـازَاةً عَادِلَـةً، فَكَيْـفَ نَنْجُـو نَحْـنُ إِنْ أَهْمَلْنَـا خَلاَصًـا هَـذَا مِقْـدَارُهُ، قَـدِ ابْتَـدَأَ الـرَّبُّ بِالتَّكَلُّـمِ بِـهِ، ثُـمَّ تَثَبَّـتَ لَنَا مِـنَ الَّذِينَ سَـمِعُوا، شَـاهِدًا اللهُ مَعَهُـمْ بِآيَـاتٍ وَعَجَائِـبَ وَقُـوَّاتٍ مُتَنَوِّعَـةٍ وَمَوَاهِـبِ الرُّوحِ الْقُدُسِ، حَسَـبَ إِرَادَتِـهِ؟» (العبرانيـن ٢: ٢ -٤).

إنّ برهـان القـوَّة والرّوح لـن يتحقّق بعد الآن بالمعجـزات الخارجيّة، بـل بصـدق وأمانـة الخدمـة الثابتـة علـى كلمـة الـرَّب. حتـى أنّ الرَّسـول بولـس الـذي لـم يكـن يصنـع المعجـزات دائمًـا، مـع أنَّـه امتلـك الموهبة، كان يتَحمَّـلُ الصِّعـاب والتَّجـارب والصِّراعـات بصبـرٍ وثبـات علـى الإنجيل. فعلـى الرّغـم مـن رسـوليَّته الأكيـدة وقيامِـه بالمعجـزات، إلّا أنَّ خدمتـه اتَّسـمت بالعـذاب والآلام مـن أجـل المسـيح.

فمـا مـن أحـدٍ يسـتطيع أن يصـفَ خدمتـه هـذه التـي لاقـت الكثيـر مـن الرَّفـض والمُقاومـة الشَّـديدة والتـي سـبَّبت لـه العـذاب والآلام، بأنَّها خدمـة ضعيفـة؟ لكن قام بعضُ المُشـكّكين بإشـاعة ذلك وخصوصًا بسـبب مـا كتبَـه: «الرَّسَـائِلُ ثَقِيلَـةٌ وَقَوِيَّـةٌ، وَأَمَّـا حُضُـورُ الْجَسَـدِ فَضَعِيـفٌ وَالْكَلاَمُ حَقِيـرٌ» (٢كورنثـوس ١٠: ١٠). لـذا كانـت وصيّتُـه: «إن كان يتكلّـم أحـد

فكأقوال الله. وإن كان يخدم أحد فكأنَّه من قوّة يمنحُها الله، لكي يتمجّد الله في كلّ شيء بيسوع المسيح، الذي له المجد والسُّلطان إلى أبد الآبدين آمين» (١بطرس ٤: ١١). فمن الواضح أنَّه كان يعتمد على بساطة الإنجيل، وليس على المعجزات: «وَأَنَا لَمَّا أَتَيْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَتَيْتُ لَيْسَ بِسُمُوِّ الْكَلاَمِ أَوِ الْحِكْمَةِ مُنَادِيًا لَكُمْ بِشَهَادَةِ اللهِ» (١كورنثوس ٢: ١). أمّا المعجزات والعجائب الكاذبة، كما قال، ستأتي سبب ضلال الكثيرين: «الَّذِي مَجِيئُهُ بِعَمَلِ الشَّيْطَانِ، بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ» (٢تسالونيكي ٢: ٩). **الخدمة قويَّة بمصدرها وهدفِها، وليس بمَظَاهِرها.**

كثيرًا ما تخدعنا المظاهر، أمَّا كلمة الرَّب فلا ترجع إليه فارغة وتأثيرُها وفعاليَّتُها دائمًا مضمونان بغَضِّ النَّظر عن النَّتائج: «هَكَذَا تَكُونُ كَلِمَتِي الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فَمِي. لاَ تَرْجِعُ إِلَيَّ فَارِغَةً بَلْ تَعْمَلُ مَا سُرِرْتُ بِهِ وَتَنْجَحُ فِي مَا أَرْسَلْتُهَا لَهُ» (إشعياء ٥٥: ١١).

كان بإمكان هذا الفرّيسيِّ الطرسوسيّ أن يخلصَ كاللّصِّ الذي صُلب إلى جانب المسيح على الصَّليب. إلّا أنّ الرَّبّ اختاره ليُظهر فيه قوّته. فامتاز بحياة مليئة بالخدمة والتضحية. أمّا سِرُّ هذه القوّة فلم يكن في شخصيّته، بل في رسالة الإنجيل التي كان يحملها أينما حَلَّ وارتحل: «لأنِّي لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنَّه قوّة الله للخلاص لكلّ من يؤمن: لليهوديِّ أوَّلاً ثمّ لليونانيّ» (رومية ١: ١٦). لقد امتاز بالجرأة في اتّكاله على الإنجيل وحده إذ حمل هذا الخبَرَ السَّارّ معه أينما ذهب. فهو لم يعتمد في حياته على نجاحات الماضي أو فشله، لأنَّ

قوَّتـه اسـتمدَّها مـن الإنجيل الـذي كان يحملـه بإصرار وإخـلاص، بالإضافة إلـى الدَّعـوة الإلهيَّـة التـي نالهـا على نحـوٍ لا يقبَـلُ الشَـكّ: «ولكن لمّا سَـرَّ اللـهَ الـذي أفرزنـي مـن بطن أمّـي، ودعاني بنِعمتِـه» (غلاطيـة ١: ١٥). أمَّا ضعفُـه فلـم يُعِقْـه عـن إكمـال دعوته ورسـالته، بل علـى العكس، فقد سُـرَّ بالضَّعفـات لأنَّهـا أظهـرت قـوَّة المسـيح في ضعفـه: «أهُم خدّام المسـيح؟ أقـول كمختـلّ العقـل، فأنـا أفضـل: في الأتعـاب أكثر، فـي الضَّربـات أوفر، فـي السُّـجون أكثـر، فـي المِيتات مـرارًا كثيـرة» (٢كورنثـوس١١: ٢٣). فقد كانـت هـذه الآلام التـي عاشَـها انعكاسًـا لقوَّةِ المسـيح وعمـل النّعمة فيه.

إنّ قـوّة رجـلِ اللـه لا تعتمـد علـى الاسـتعراض ولا علـى الشـكل الخارجـيّ، بـل علـى مـدى اعتمـاده علـى الإنجيـل وتمسُّـكِه به. فلقد أسـرَ بولـس الرَّسـول مسـتمعيه علـى الرّغم مـن كونه إنسـانًا عاديًّـا، لأنّ تركيزَه انصَـبَّ علـى المسـيح وتمحـور حولـه وحـده: «وأنـا لمَّا أتيـت إليكـم أيُّها الإخـوة، أتيـت ليـس بسـموّ الـكلام أو الحكمـة مناديًـا لكـم بشـهادة اللـه، لأنِّـي لـم أعـزمْ أن أعـرف شـيئًا بينكـم إلَّا يسـوع المسـيح وإيّـاه مصلوبًـا» (١كورنثوس ٢: ١ و٢). فمن النَّاحية الجسـديَّة والبشـريَّة كان بولس ضعيفًا، ولـم يُخـفِ عـن أحد تلـك الحقيقة إذ قـال: «وأنا كنت عندكـم في ضعفٍ، وخـوفٍ، ورعـدة كثيرة. كلامـي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسـانيَّة المُقنـع، بـل ببرهـان الـرُّوح والقـوَّة، لكي لا يكـون إيمانُكم بحكمـة النَّاس بـل بقـوَّة اللـه» (1كورنثـوس 2: 3 -5). **الخدمـة قويَّـة بقـدر ما هـي نقيَّة، وخاليـة مـن أيَّة إضافـاتٍ علـى الإنجيل.**

مَجدُ الله أم مجد النّاس

إنّ الخدمة القويّة تُظهِرُ من دون شكٍّ مجدَ الله وعملَه أوَّلًا، على عكس الخدمة الضَّعيفة وغير الفعَّالة لملكوت الله. حريٌّ بأن تُظهِرَ خدمتُنا للعالم المسيحَ وقوَّةَ الإنجيل من خلال تقديم الرّسالة نفسِها والإعلان نفسِه. خدم الرَّسول بولس بإخلاص على الرّغم من امتلاكه للسُّلطة الرَّسوليّة، علمًا أنَّ الإنسان معرَّض دائمًا أن يستخدم تلك السُّلطة لمجدٍ شخصيٍّ أو مكاسب معيَّنَة. لكنَّ اللّافت هنا أن الرَّسول لم يستخدم تلك السُّلطة إلاّ بكلِّ وداعة وتواضع غير طالب ما هو لنفسه.

لقد أكَّد لأهل لسترة المندهِشين لكونِهِ مجرّدَ إنسان يُصارع مع الخطيّة وتحت الآلام مثله مثل سائر النَّاس: «أَيُّهَا الرِّجَالُ لِمَاذَا تَفْعَلُونَ هَذَا؟ نَحْنُ أَيْضًا بَشَرٌ تَحْتَ آلاَمٍ مِثْلُكُمْ» (أعمال ١٤: ١٥). لم يستغلّ سلطتَه الرَّسوليّة لكي يحصُد أيَّ تمجيد من النّاس أو ليقبل التكريم. وهو لم يكتفِ بردع النّاس عن فعل ذلك معه، بل مَنَعَهُم من أن يقدِّموا له ولبرنابا ما يجبُ ألّا يُقدَّمَ إلّا للهِ وحده: «وبقولهما هذا كفّا الجموع (الذين في لسترة) بالجهد عن أن يذبحوا لهما» (أعمال ١٤: ١٨).

إنَّ الله يرفع الإنسان الذي يخدمه بتواضع وإخلاص؛ من لا يطلب المجد لنفسه. وهذا ما حصل مع بولس بالتحديد. فعلى الرّغم من دوره الكبير وخدمته الواسعة النّطاق، رأى نفسه كما هي بالحقيقة: «فَإِنِّي أَرَى أَنَّ اللهَ أَبْرَزَنَا نَحْنُ الرُّسُلَ آخِرِينَ كَأَنَّنَا مَحْكُومٌ عَلَيْنَا بِالْمَوْتِ» (١كورنثوس ٤: ٩). فهو لم يخجل من الافتراء عليه أو الضِّيق أو الآلام التي واجهته لأجل المسيح، بل بالحري افتخر بها: «يُفْتَرَى عَلَيْنَا فَنَعِظُ.

صِرْنَا كَأَقْذَارِ الْعَالَمِ وَوَسَخِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى الآنَ» (١كورنثوس ٤: ١٣). أوَليس هو صاحب الشِّعار الذي يقول: «إن مُتنا معه، فسنحيا أيضًا معه.» فمن يرفض الإهانة والآلام لأجل المسيح لا ينتطرَنَّ المُكافأةَ من الله، ذلك لأنَّ كرامة المؤمن محفوظة في شخص المسيح وحده. فهو هويّتُنا وكرامتُنا ومجدنا. **من يُدرك معنى الكرامة لا يخاف عليها، ومن يُدرك معنى الكرامة لا يبحث عنها، بل يعيشها فقط.**

قوَّة في الضُّعف

ليست ضعفاتنا البشريَّة عائقًا أمام انتصارات الله العجائبيَّة. فهو يعمل في ضعفنا أكثر مِمَّا يعمل في قوَّتنا. فمن أوكِلَ بأصعب مُهمَّة: «إِنَاءٌ مُخْتَارٌ لِيَحْمِلَ اسْمِي أَمَامَ أُمَمٍ وَمُلُوكٍ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ» (أعمال ٩: ١٥)، أُعطي شوكة في الجسد. وبعد تضرُّعه إلى الرَّبّ ثلاث مرَّات أن تفارقه، جاءَه الجواب: «تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضُّعْفِ تُكْمَلُ. فَبِكُلِّ سُرُورٍ أَفْتَخِرُ بِالْحَرِيِّ فِي ضَعَفَاتِي، لِكَيْ تَحِلَّ عَلَيَّ قُوَّةُ الْمَسِيحِ» (٢كورنثوس ١٢: ٩). ولكن لماذا الضَّعف؟ لقد ذكرَ السَّببَ بصراحةٍ تامَّة: «لِئَلاَّ أَرْتَفِعَ» (٢كورنثوس ١٢: ٧). إنَّ رغبة الله في قداستنا يجب ألاّ تُعيقَ ثقتنا على أنَّه يعمل فينا ومن دوننا. أمَّا التكبُّر فهو من صفات الجسد، لكن للأسف هو موجود في دائرة العالم الرُّوحي: «إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلاَ حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ» (رؤيا ٣: ١٧). فهو يقتل مفاعيل قوّة كلمة الله في المؤمن، بينما الاعتراف والتواضع يُفسحانِ في المجال لها. فبولس كان هذه الآنية الخزفيَّة التي حملت الرِّسالة الذَّهبيَّة، التي غيّرت وبدّلت حياة كثيرين إذ كانت تبشِّر بالمسيح فقط:

«فَإِنَّنَا لَسْنَا نَكْرِزُ بِأَنْفُسِنَا، بَلْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبًّا، وَلَكِنْ بِأَنْفُسِنَا عَبِيدًا لَكُمْ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ» (٢كورنثوس ٤: ٥).

وصف بولس نفسَه مرَّاتٍ عديدة بأنّه عبدٌ وأوَّل الخطاة. وقد أبدى من خلال حياته وسيرته استعدادًا كبيرًا لدفع كلفة الإتّباع وخدمة الإنجيل مهما كان الثَّمَن باهظًا: «لأَنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ نُسَلَّمُ دَائِمًا لِلْمَوْتِ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ، لِكَيْ تَظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضًا فِي جَسَدِنَا الْمَائِتِ» (٢كورنثوس ٤: ١١). **لو كان بولس يشعر بالقوَّة النَّابعة منه، لما ظهرت فيه قوَّة المسيح.**

مواجهة صريحة

بالإضافة إلى أنَّ الرَّسول بولس لم يقبل أن يأخذ أي مجدٍ من النّاس، فهو لم يقدّم لهم يومًا الحقَّ بطريقة خجولة أو مُخفّفة أو مُنمَّقة لكي يكسب مودَّتَهم. فقد أخبر النّاس في لسترة بكلّ وضوح أنَّ عليهم التخلّي عن أباطيلهم وطقوسهم الفارغة: «نُبَشِّرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا مِنْ هَذِهِ الأَبَاطِيلِ إِلَى الإِلَهِ الْحَيِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا « (أعمال ١٤: ١٥). فعلى الرّغم من احترامهم وتقديرهم له، إلّا أنَّه كان يقدِّم الحَقَّ بكلِّ صراحة ومجاهرة. فهو من دون أدنى شكّ أحبَّهم واحترمهم لدرجة أنَّه صارحهم بالحَقّ المُطلق من دون مساومة إزاء ما يُناسبهم أو يرضيهم. لم يسايرهم على أنَّ عبادتهم لا بأس بها، وأنّه وجب عليهم فقط إضافة مفهوم آخر، بل واجههم علانيّة بزَيفِ عبادتهم وعدم فائدتها. بالمقابل أخبرهم عن الله الحيّ، موجّهًا

أنظارهـم نحـو العبـادة الحقيقيّـة التـي لا تقبـل التَنَـوُّع أو المسـاومة. لقد قـدَّم لهـم الإعـلانَ العـامّ عـن اللـه الذي سـيدينهم إن لـم يتوبـوا، حتى من دون معرفتهـم بالكتـاب المقـدّس، وقـدَّم لهـم الإلـه الـذي أرسـل شـهوده لكـي يُخلِّـص أحبَّـاءَه: «مَـعَ أَنَّـهُ لَـمْ يَتْـرُكْ نَفْسَـهُ بِـلاَ شَـاهِدٍ» (أعمـال ١٤: ١٧). **الخليقـة تُعلـن عـن خالقهـا، والإنجيـل يُعلـن عـن فاديهـا.**

بـانَ الإخـلاصُ واضحًـا جـدًّا فـي خدمـة بولـس الرَّسـول. فقـد واجـه أولئـك الذيـن أرادوا أن يعبـدوا اللـه بواسـطة الأوثـان، مُظهِرًا لهـم أنَّ الله الحقيقـيَّ لا يُشـبه أحـدًا، إذ عبَّـر عـن نفسـه مـن خـلال الكلمـة، يسـوع المسـيح الأزلـيّ. كمـا أعلـن لهـم أنّ لهـذا الإلـه سـحابة مـن الشّـهود وأنّـه لـن يتـرك الإنسـان بعيـدًا عـن معرفتـه. **فـكلُّ عبـادة للـه ليسـت بالـرّوح والحَـقّ هـي تشـويه لصورتـه، وليسـت محاولـة ناقصـة للإقتـراب منـه.** كمـا أنَّ محبَّتَنـا للنّـاس يجـب ألاّ تدفعنـا للخـوف مـن تأثيـر الحَـقّ عليهـم. فخـلاصُ نفوسـهم وتحريرهـم مـن عبوديّـة إبليـس والخطيَّـة أهـمُّ بكثيـر مـن اسـتمتاعهم برسـالتنا. ففـي وسـط الأريـوس باغـوس فـي أثينـا، وقـف بولـس أمـام الفلاسـفة ورجـال الدِّيـن وكبـار القـوم يقـول لهـم بمجاهـرة: «فَاللَّـهُ الآنَ يَأْمُـرُ جَمِيـعَ النَّاسِ فِـي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُـوا مُتَغَاضِيًا عَنْ أَزْمِنَةِ الْجَهْـلِ» (أعمـال ١٧: ٣٠).

خدمة المُصالحة

لـم يـأتِ المسـيح لكـي يُخلّصَنـا مـن ضعفاتنـا وأمراضنـا وأخطائنـا، أو من فشـلنا وابتعادنـا، لكنّـه جـاءَ لكـي يُخلّصنـا من غضب اللـه الذي نسـتحِقُّه.

هـذا هـو الإنجيـل: ليـس رسـالة اجتماعيَّـة أو صحيَّـة أو نفسـيَّة، بـل هـو مرتبـطٌ ارتباطًـا وثيقًـا بالـدَّمِ المسـفوك علـى الصَّليب. **الإنجيل هو رسـالة سـلام مكتوبـة بالـدَّم.** هو أنَّ المسـيح مات على الصَّليب بديـلًا عنّا، وحمل قصـاص خطايانـا صائـرًا لعنـة لأجلنـا: «لأَنَّـهُ جَعَـلَ الَّذِي لَـمْ يَعْـرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّـةً لأَجْلِنَـا، لِنَصِيـرَ نَحْـنُ بِـرَّ اللـهِ فِيـهِ» (٢كورنثـوس ٥: ٢١). إنّ خدمـة الرَّسـول بولـس كانـت دعـوة للمُصالحـة بواسـطة الصَّليـب. فالتبريـر لا يحصـل إلا بالإيمـان بذبيحـة واحـدة أكْمَلَـت وتمَّمـت كُلَّ شـيء. هـذا مـا تؤكِّـده لنا الرِّسـالة إلى العبرانيّيـن: «وَلَكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ مَـرَّةً عِنْدَ انْقِضَاءِ الدُّهُـورِ لِيُبْطِـلَ الْخَطِيَّـةَ بِذَبِيحَـةِ نَفْسِـهِ» (٩: ٢٦). لـم يأتِ المسـيح ليقدِّم عرضًـا للخـلاص، بـل جـاء ليُخلّص شـعبَه مـن خطاياهـم: «الَّـذِي أُسْـلِمَ مِنْ أَجْـلِ خَطَايَانَـا وَأُقِيـمَ لأَجْـلِ تَبْرِيرِنَـا» (رومية ٤: ٢٥). **الخـلاص عملٌ قد تمَّ بالفعـل، وليـس عرضًا ينتظر الإسـتجابة.** فالمسـيح على الصَّليب اسـترضى العدالـة الإلهيَّـة، وأشـبع قلـبَ الآب، وتمَّم النبـوَّات، وداس قـوّات الجحيم لأجلنـا. إنَّـه وحـده الرَّاعـي الصَّالح، الذي بذل نفسـه عن الخـراف من دون حاجـة إلـى مسـاعدة أحد مـن النّاس. نعم! بذل نفسـه عن الخـراف الضالَّة التـي لـم يكـن لديهـا أيَّـة إمكانيَّة للرّجـوع إلى حظيـرة الخراف. فالرَّسـول لـم يَـدعُ الذيـن اختارهـم اللـه قبـل تأسـيس العالـم لإطاعته للخـلاص، بل دعاهـم ليؤمنـوا أنَّ طاعـة المسـيح وحدهـا خلَّصَتْهم: «لأَنَّـهُ كَمَـا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَـانِ الْوَاحِـدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَـاةً هَكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَـيُجْعَلُ الْكَثِيـرُونَ أَبْـرَارًا» (رومية ٥: ١٩). إذًا، خدمة الرَّبّ ليسـت خدمة قضيَّة ما أو السَّـعي للوصـول إلـى هـدف مـا، أو دعوة الإنسـان لعمـل أمرٍ مـا، علمًا أنّ هـذه الأمـور قـد تكـون نبيلـة وشـريفة، لكـنَّ خدمـة الرَّبّ هـي خدمة

الدَّعـوة للمُصالحـة مـع الله بواسـطة الصَّليب. هذا ما فعلـه بولس، فأصبح مِثـالًا لـكُلِّ خـادم آخـر. **يجب علـى خُدّام الإنجيـل ألاّ يخدمـوا إلاّ الإنجيل.** وبغيـر ذلـك يفقـد التكريـس معنـاه، ويخسـر جوهـرَه؟ فالقضايـا الجانبيَّـة المُحقَّـة، الأخلاقيَّـة منهـا أو الاجتماعيَّـة، يجب ألاّ تأخـذ الأولويَّة.

إخلاص

عـرَّف الرَّسـول بولـس عن نفسـه في معظـم رسـائله على أنَّه عبد ليسـوع المسـيح. كمـا أصَـرَّ فـي أماكن عديدة من رسـائله على أنّه رسـول من عند المسـيح، لا مـن عنـد النَّـاس، أي أنّ خدمتـه مُعطـاة له مـن الرَّبّ شَـخصيًّا. لقـد خـدم علـى نحـوٍ كبيـر، وقصـدَ كلَّ العالـم الرّومانـي آنـذاك. فالرّحلـة الأولـى التـي قـام بهـا كانـت مع برنابا، ثمَّ سـافر مع سـيلا وتيموثـاوس. أمّا الرّحلـة الثالثـة، فكانـت برفقة لوقا وسـبعة رفاق آخرين. عشـرُ سـنين من دون كلـلٍ أو ملـل قضاهـا فـي التبشـير والتضحية من أجل رسـالة الإنجيل. اختبـر أنَّ خدمـة الـرَّبّ ليسـت بالأمـر السَّـهل أو يمكـن القيـام بهـا كأمـر ثانـويّ. كمـا اختبـر أن نجاحَهـا ليـس منوطًـا بقـوّة الإنسـان وقدرتـه، بـل بمـدى إخلاصـه، وهـي لا تحتـاج إلـى حكمـة بشـريَّة، بـل إلـى الأمانـة في نقل الرِّسـالة. يميل البشـر بأديانهم وطوائفهم لاستحسـان ديانات الأعمال وإتّباعهـا. فهـم يريـدون أن يقومـوا بعمـلٍ مـا للخـلاص، إذ يصعـب عليهم، بسـبب كبريائِهـم وطبيعتِهـم السَّـاقطة، أن يقبلـوا حقيقة التبريـر المجَّاني بالإيمـان وحـده. وأفضـل مـا تصنعُـه محاولاتُهـم لفهـم اللـه وإرضائـه هي عبـادة الأوثان.

إنَّ الله هو الذي أعطى الإنسانَ الحياة، وهو من يستطيع أن يُعيدَها له بعد السُّقوط: «لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ» (أعمال ١٧: ٢٨). فمجد الله لا يُعطى لآخر. وعلى أساس هذه الحقيقة أظهر الرَّسول بولس لمن بشّرهم أنّه يوجد حَقٌّ معلن للجميع، وعليه سيحاسِبُ الله كلّ إنسان: «لأنّ غضب الله معلنٌ من السَّماء على جميع فجور النّاس وإثمِهِم، الذين يحجزون الحَقَّ بالإثم. إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأنّ الله أظهرها لهم، لأنّ أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدركة بالمصنوعات، قدرته السَّرمديّة ولاهوته، حتى إنَّهم بلا عذر. لأنهم لمّا عرفوا الله لم يمجدّوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبيّ. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى، بشبه صورة الإنسان الذي يفنى والطيور والدَّواب، والزَّحّافات. لذلك أسلمهم الله أيضًا في شهوات قلوبهم إلى النجاسة، لإهانة اجسادهم بين ذواتهم» (رومية ١: ١٨ -٢٤). كان بولس الرَّسول مخلِصًا في خدمته ومعلنًا الحقّ كما هو بكلِّ جرأة لكلِّ من يلتقيه.

واللّافت في الأمر أنّ بولس لم يَرضَ في أن تتوقّف بشارته مقابل إقامة علاقاتٍ طيبّةٍ مع النّاس، وأن يقبلوه هو كشخص، بل أرادهم أن يعرفوا الإله الحقيقيَّ الذي عاش ومات وقام لأجل تبريرهم حتى على حساب نفسه. فخدمتُه تمتَّعت بالإخلاص لأنّها لم تكن قائمة على النَّجاح الشَخصيّ، بل لأجل مجد المسيح. لم تكن خدمة الرُّسل آنذاك منوطة بقبول النَّاس لهم، بل كانت مبنيّة على دعوة صادقة بالإنجيل لكي يأتوا إلى المسيح بالإيمان والتوبة؛ حتّى لو تحقَّق ذلك على

حساب أن يكرَهَهم النّاس بسبب رسالتهم الصَّادقة تلك.

لم يُفرَزْ بولس الرَّسول للدّفاع عن نفسه، بل للدّفاع عن الإنجيل. فقد عانى كثيرًا من أشخاص لاحقوه مُتكلّمين بأمور مُضادّة. لقد تشبّه بمعلّمه المسيح وخدم مثله غيرَ آبهٍ برضى النَّاس وقبولهم له. فهو الذي أدرك أنّ أعظم ما في الخدمة ليس النّتائج الظاهريَّة، بل تلك الداخليَّة التي تخصُّه هو قبل غيره: «لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ» (فيلبي ٣: ١٠). هذ الإخلاص جعله يتعرّض للرَّفض في كثير من الأحيان حتى بعد أن رَحَّبوا به أوَّلًا. هذا ما حصل تمامًا مع الرَّبّ يسوع المسيح الذي نال الترحيب سابقًا أثناءَ دخوله أورشليم، ثمَّ صرخَ الشَّعبُ بمُعظمِه بعد أيَّام قليلة مُطالبين بصلبه. ففي مدينة لسترة، أراد النَّاس عبادة بولس، ولكن حينَ جاءَ اليهودُ وأقنعوا هؤلاءِ الجموعَ أن يتحوّلوا ضدّه، أدَّى ذلكَ إلى رجمه وإخراجه بعيدًا عن المدينة لدرجة ظنّوا فيها أنّه قد مات. لكنَّ بولس تشبّه بمعلّمه من خلال جرأته وإصراره، إذ بعد هذا الرَّجم القاسي نراه يقوم من جديد ويدخل المدينة: «ولكن إذ أحاط به التَّلاميذ، قام ودخل المدينة» (أعمال ١٤: ٢٠). واللّافت هنا أنَّه لم يتذمّر على الرَّبّ قطعًا، ولم يشعر بالمظلوميَّة بسبب الآلام التي عانى منها خلال الرَّجم، وهو المُخلِص الذي لا يستحِقُّ ذلك. وهذا يشير بقوّة إلى مدى إخلاصه للرَّبّ وعدم توقّعه لأيّة مكافآتٍ على الأرض.

دوافع مقدَّسة

مـن الواضـح أيضًـا أنَّ الرَّسـول بولـس قـد تميَّـز بدوافـع مقدّسـة خـلال خدمتـه. فهـو لـم يكـن يقـوم بما يقـوم به لأجـل نفسـه، وبالتالي لـم يهتمّ بمـا يُرضـي النّـاس، بـل بمـا يُرضـي اللـه: «بـل كمـا استُحسِـنّا مـن اللـه أن نُؤتمَـن علـى الإنجيـل، هكـذا نتكلّـم، لا كأنَّنـا نُرضـي النّـاس بـل اللـه الذي يختبـر قلوبنـا. فإنَّنـا لم نكـن قطّ في كلام تملّـقٍ كما تعلمـون، ولا في علّة طمـع. اللـه شـاهد. ولا طلبنا مجدًا مـن النّاس، لا منكـم ولا من غيركم، مع أنّنـا قـادرون أن نكـون في وقارٍ كرُسُـل المسـيح» (١تسـالونيكي ٢: ٤ -٦). فعلـى الرّغـم مـن أنَّ رسـالته كانـت مـن أجل النّـاس، إلّا أنّ همَّـه الأوّل لم يكـن إرضاءَهـم، بـل سـعى بـكلِّ جديَّة ومثابـرة أن يصـل بالإنجيـل إليهم. هـذا مـا يقودنـا إلـى إدراك جوهر الخدمـة الحقيقيّة كما عبَّر عنه الرَّسـول نفسُـه في سـفر الأعمال قائلًا: «ولكنني لسـت أحتسـب لشـيء، ولا نفسي ثمينـة عنـدي، حتـى أُتمّـم بفـرح سـعيي والخدمـة التـي أخذتها مـن الرَبّ يسـوع، لأشـهد ببشـارة نعمـة اللـه» (٢٠: ٢٤). إنَّ الدَّوافـع الداخليَّـة أمـرٌ فـي غايـة الأهميَّـة فـي عمـل الـرَّبّ وخدمته، اذ أنَّـه من الممكـن أن تأخذ الخدمـة مظهـرَ القـوَّة والحماسـة فيمـا الحقيقـة أنَّهـا تنبـع مـن رغبـةٍ فـي إظهـار الـذّات ونَيـل رضـى النّاس. لم يدَّعِ بولس الرَّسـول أنّه عبدٌ للمسـيح فقـط، بـل راح يُضحّـي بمكانتِه وصيتـه وحريّته وراحته من أجلـه. فمحبّتُه الصَّادقـة للمسـيح طَهَّـرت دوافعه إذ حسـب أنَّ كلَّ ما خسـره لأجل الرَّبّ نفايـة، لا قيمـة لـه. **إنّ الدوافـع المقدّسـة تظهـر مـن خلال عـدم المُطالبة بالمُكافـأة، بـل بقبـول حمـل الصَّليـب**، أي قبـول الألـم مـن أجل البِـرّ. قال مـرَّة لمؤمنـي مدينـة كورنثـوس: «إن كان آخـرون شـركاءَ فـي السُّـلطان

عليكم، أفلَسْنا نحن بالأولى؟ لكنّنا لم نستعمل هذا السُّلطان، بل نتحمَّلُ كلَّ شَيءٍ لئلّا نجعل عائقًا لإنجيل المسيح» (١كورنثوس ٩: ١٢). هذا يؤكِّد لنا رغبة الرَّسول بولس الدَّائمة في إزالة كلِّ العوائق من جهته لصالح انتشار الإنجيل. فهو قد وضع حقوقه جانبًا، رافعًا الإنجيل فوقها.

نراه يثابر ويُكمل مسرَّةَ الخدمة على الرّغم من اتّهامات اليهود الكثيرة والمتنوّعة له. حتى بعض الكنائس التي أسّسها بنفسه تمرّدت عليه لاحقًا، لكنَّه لم يرفضها بل استمرَّ في إظهار المحَبَّة لها واعظًا وناصحًا وموبّخًا، الأمرُ الذي أظهرَ نواياه المقدَّسَة في الخدمة بصورةٍ لا تَقبل الشَكّ. فهو لم يسعَ يومًا لينالَ المديح والقبول من خلال خدمته، ولا سعى ليحقّق لنفسه اسمًا أو يجمع وراءَه جمهورًا. فعندما خسِرَ سمعته، لم يُعِرِ الموضوع اهتمامًا، ذلك لأنّ دوافعه كانت مجد المسيح لا مجدَ نفسِه أو طيب سمعته. فهو الذي آمن أنّ أيّة كنيسة أسّسها أو ساعد في نموِّها يمكنُها أن تُكمِلَ من دونه على الرّغم من الصِّعاب. هذا ما قاله لكنيسة أفسس عند وداعها، وهو عالم بالتّحديات التي ستواجهها: «والآن أستودعكم يا إخوتي لله ولكلمة نعمته، القادرة أن تبنيَكم وتعطيكم ميراثًا مع جميع المقدّسين» (أعمال ٢٠: ٣٢).

في ضوء كلِّ ما سبق، يمكننا أن نكون واثقين أنّه لا بدّ للنَّوايا أن تترك أثرًا على صحّة الخدمة. فهي إمّا أن تكون مقدّسة، همُّها المسيحُ ومجدُه أوَّلًا وقبل كلِّ شيء، أو أن تكون نجسة، همُّها الذّات وتمجيدُها انطلاقًا من المصالح الشَخصيَّة.

الفصل

٦

النّموذج والمثال

"لقد اقترب بولس من النّمَط الإلهيّ أكثر من أيِّ رسولٍ آخر شهدَه العالم."

ج. أزوولد ساندرز

على الرُّغم من السَّلاسل التي قيَّدته والمشاكل التي لاحقته والاضطهاد الذي رافقه حتى النّهاية، استطاع الرَّسول بولس أن ينجح في خدمة الرَّبّ نجاحًا باهرًا. فهو لم يعرف الفشَل، ذلك لأنَّه أخذ خدمته من الرَّبّ: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، إِذْ لَنَا هَذِهِ الْخِدْمَةُ كَمَا رُحِمْنَا، لاَ نَفْشَلُ" (٢كورنثوس ٤: ١). فقد كان النّموذج والمثال الذي يُقتدى به. وبناءًا على سيرته هذه، نستطيع أن نستخلص أيَّ أناس يستخدمُهم الرَبُّ ويوَكِّلُهم على خدمته، وما هي المؤهّلات التي جعلت من هذا الرَّسول مِثالًا يُحتذى به، كما جعلته متميّزًا عن جميع الذين يخدمون من أجل إرضاءِ الذَّات وإظهارها.

الرَّسول العَبد

لا بـدَّ خـلال متابعتنـا لحيـاة الرَّسـول بولـس وخدمتـه، مـن أن نُـدرك أنّ الذيـن يسـتخدمهم الـرَّبُّ ويُنجـز من خلالهـم البطولات يعتبرون أنفسَـهم عبيـدًا بيـن يديـه، بـل ويتصرّفـون علـى هذا الأسـاس.

فهـو لـم يخجـل بأن يقـول لأهل كورنثـوس في رسـالته الثانيـة إليهم: "فإنّنـا لسـنا نكـرز بأنفسـنا، بل بالمسـيح يسـوع ربًّـا، ولكن بأنفسـنا عبيدًا لكـم مـن أجـل يسـوع" (٤: ٥). وبهـذا نـرى أنّ الرَّسـول بولـس لـم يكـن يكـرز بنفسـه ولا بتقـواه ولا بسـيرة حياتـه، ولا حتّـى ببعـض الأخلاقيّـات التـي تمتّـع بهـا، بـل كان يكـرز بالمسـيح، وبـه فقـط. كان يقـدّم نفسَـه كعبـدٍ للـرَّبّ، وبالتالـي كعَبـدٍ من أجـل النّـاس. **إنّ الربّ لا يصنـع بطولات بواسـطة شـرفاء النّـاس، بـل بواسـطة أقلّهـم أنانيَّـةً وكبرياءً وتعجرفًـا.**

لقـد كان بولـس مـن دون شـكٍّ من أكثر الرُّسـل أهميَّـة وأكثرهم عِلمًا وحكمـة وثقافـة، إلاّ أنّ هـذه كلَّهـا لـم تمنعـه مـن أن يعتبـر نفسـه عبـدًا ليسـوع المسـيح وخادمًـا للنّـاس من أجـل الرَّبّ. هـذا الاعتـراف بالعبوديّة يعكـس طبيعـة علاقة صاحبه الحقيقيَّـة مع خالقه وفاديه. **فالشُّـعور بعدم الأهليّـة وعـدم الاسـتحقاق لخدمـة المسـيح هو مـن أهمِّ المؤهِّـلات لها.** لذلـك يجـب أن تكـون المحبَّـةُ الدّائمـة للـرَّب والرَّغبـةُ فـي تمجيد اسـمه مـن خـلال طاعتـه كلّ حين همـا الدّافعَيـن الأساسـيَّين للخدمة.

إنّ قبـول الدَّعـوة أن يكـون المَـرْءُ عبـدًا للمسـيح، لهـو تعبيـر عـن جديّـة الاتّبـاع. عندمـا افتدانا الـرَّبّ واشـترانا، حرَّرنا من عبوديّة الشَّـيطان

والخطيّة ودعانا أن نتجنّد لخدمته، إلّا أنّ الذي يريد أن يخدم الرَّبّ خدمة مرضيَّة لا بدّ أن يصل إلى شعور حقيقيٍّ أنَّه عبدٌ للّذي اشتراه، ترافقه حياة على هذا الأساس. "وكان جموعٌ كثيرَة سائرين معه، فالتفت وقال لهم: إن كان أحد يأتي إليّ ولا يُبغض أباه وأمَّه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتّى نفسَه أيضًا، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا" (لوقا ١٤: ٢٥ و٢٦). فكون الإنسان عبدًا هنا يعني التكريس الكامل للرَّبّ من دون وجود أيّ ولاء أو انتماء أو علاقة أخرى تستطيع أن تمَسَّ هذا الإلتزام أو تعيق تحقيق هدفه. كما يُعبّر هذا الأمرُ أيضًا عن حالةٍ نهائيَّةٍ لا يمكن أن تتغيَّر. هناك إمكانيَّة أن يُنهي الموظَّف عقد توظيفه، كذلك يمكن أن ينهي الموتُ العلائق الطبيعيّة بين النّاس. أمّا أن يكون المؤمن عبدًا ليسوع، فهذا التزامٌ يجب أن يبقى مدى الحياة. إذّاك يتوقّف العبدُ عن العمَل من أجل مصالحه الخاصَّة ليعمل فقط من أجل مصالح سيِّدِه الذي اشتراه وامتلكه، ويكون مكرّسًا لخدمته بالكامل. أن تكون عبدًا ليسوع المسيح أمرٌ يختلف كلَّ الاختلاف عن عبوديَّة البَشَر. ذلك لأنَّ الالتزام في خدمة السَيِّد يجلب معه العِزَّ والكرامة والشَّرَف، الأمر الذي هو بعيدٌ كلَّ البعد عن إرضاء النَّاس على حساب المسيح، بل هو خدمة النّاس كنتيجة وتعبير وطاعة لمشروع ودعوة المسيح.

كتب الرَّسول محذّرًا من تضارب مطالب النّاس مع مطالب الله، فوجَّهَ كلامَه للذين أساؤوا فهم هذه العلاقة، فقال: "بولس رسول لا من النّاس ولا بإنسان، بل بيسوع المسيح والله الآب الذي أقامه من الأموات" (غلاطية ١: ١). وأضاف في الأصحاح نفسِه: "أفأستعطِفُ الآن النّاسَ أم الله؟ أم أطلب أن أُرضي النّاس؟ فلو كنت بعد أُرضي النّاس،

لـم أكـن عبـدًا للمسـيح" (عـدد ١٠). إنّ العبوديّـة للنّـاس مـن أجـل خدمة الـرَّبّ ليسـت بالأمـر السَّـهل، بينمـا محـاولات إرضائهـم بأيّ ثمـن لهي فَخٌّ سـهلٌ الوقـوعُ فيـه. أمَّـا الحالـة المطلوبـة، أي العبـد للمسـيح، فتتميّـز في كونهـا ملتزمـة بتقديـم الإنجيـل للنّـاس أوَّلًا علـى الرُّغـم مـن كلِّ الصِّعـاب والعراقيـل: "بـل قـد رفضنـا خفايـا الخـزي، غيـر سـالكين فـي مكـر، ولا غاشّـين كلمـة اللـه، بـل بإظهـار الحَـقّ..." (٢كورنثـوس ٤: ٢). فحتّـى لـو رفـض النّـاس الإنجيـل مطالبيـن ببدائـل أخـرى، يبقـى العبـد علـى إصراره فـي تقديـم الرّسـالة نفسِـها: "لأنَّ الله الذي قال: أن يُشـرقَ نـورٌ من ظلمة، هـو الـذي أشـرق فـي قلوبنـا، لإنـارَةِ معرفـةِ مجـدِ اللـه فـي وجـه يسـوع المسـيح" (٢كورنثـوس ٤: ٦). هكـذا يسـتخدم الـرَّبُّ المؤمـنَ الـذي يضـع الإنجيـل أوَّلًا ويتعهّـد أن يقدّمـه للنّـاس فـي كلِّ وقـت، متألِّميـن كانـوا أو محزونيـن أو مرضـى. فمهمـا تنوّعـت مشـاكل النّـاس يبقـى الإنجيـل هـو الحاجـة الأولـى والأخيـرة، وأيّـة أمـور أخـرى تأتي فـي المراحـل اللّاحقة. إنّ أعمـال الخيـر والإحسـان للجميع هي من نتاج الطبيعـة الجديدة لأولاد اللـه، وهـي مطلوبـة ومهمَّة، لكـن من الضَّـروري أن يعرف الشَّـخصُ الذي يتلقّـى الإحسـان أنّ مـا يحصـل عليـه هـو من أجل المسـيح وبسـببه فقط. **إنّ خدمـة المؤمـن علـى اختلاف أنواعهـا يجب أن تُعلِنَ بوضـوح لمُتلقِّيها بإنّهـا ليسـت مجـرّد أعمال صالحـة، بل هي نتيجـة عمل المسـيح الفدائيّ فـي القلـب.** بـدون ذلـك الوضوح لا يتمجَّد المسـيح، بـل تتمجَّد الإنسـانيَّة الفاسـدة علـى الرّغـم مـن مشـاهد الإحسـان هذه.

الرَّسول الضَّعيف

إنَّ واحدًا من أسرار الحياة الرّوحيّة، هي كيف يستخدم الرَّبُّ بشكلٍ خاصٍّ الآنية الضَّعيفة: "ولكن لنا هذا الكنزُ في أوانٍ خزفيّة، ليكون فضلُ القوَّةِ لله لا منّا" (٢كورنثوس ٤: ٧). إنّهم أولئك الخدّام الذين يطيعون الله ويعملون بدون كللٍ أو مللٍ ويضَحّون على حساب راحتهم، فيما هم ليسوا من ذهب أو فضّة أو نحاس، بل هم آنية خزَفيَّة ضعيفة، متواضعة من دون أن ننسى أنّ هذه الآنية قابلة للكسر بسهولة. في هذا يُظهرون أنّ القوّة تكمن في المحتوى لا في الأداة. فقوّة النَّجاح ليست بحنكة الإقناع أو سِحر الإبهار، بل في عمل الإنجيل من خلال قوّة الرُّوح القدُس. فمن أراد أن يخدم من دون الإنجيل، من الأفضل له ألّا يخدم. إنَّ النّاس يحتاجون للإنجيل مُقدَّمًا ببساطة في كُلّ الأوقات والظروف، إذ إنّه الخبزُ الحقيقيّ الذي يحمل كلام الحياة الأبديّة الذي لا غنى عنه. بهذه الطريقة يتغيّر العالم، من خلال عمل المسيح وكلمته، لا بسبب قوَّة أو حكمة أو التأثير الشَخصيّ لناقل هذه الكلمة.

الخادم الحقيقيّ يتألّم ويمرَضُ ويموت، لا بل تكون الآلام والضّيقات في حياته فرصة لإظهار نعمة وعظمة المسيح: "مكتئبين في كلّ شيء، لكن غير متضايقين. متحيّرين لكن غير يائسين" (٢كورنثوس ٤: ٨). فكلمة مُكتئبين هنا، تعني وجود ضيقات من كلّ ناحية، لكن لا تستطيع هذه الضِّيقات أن تسحَقَ المؤمن الحقيقي. يُكمل الرَّسول هذه السِّلسلة ويقول: "مضطّهَدين ولكن غير متروكين. مطروحين، لكن غير هالكين. حاملين في الجسد كلّ حين إماتةَ الرَّبّ يسوع، لكي تظهرَ حياة

يسوع أيضًا في جسدنا. لأنّنا نحن الأحياء نُسلّم دائمًا للموت من أجل يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضًا في جسدنا المائت" (٢كورنثوس ٤: ٩ -١١). عندما يظنّ المؤمن أنّ لديه قوَّة جسديَّة لدرجة أنَّه من الصَّعب أو المستحيل أن يمرض، وهو أيضًا بمنأى عن الضّيقات بسبب سموٍّ خدمته أو أمانته، فهو يخدع نفسه ويُملي على الله قراراتٍ ليس بمقدروه أن يأخذها. قدّم بولس الرَّسول لنا نموذجًا عن الموت اليوميّ الذي كان يختبره. لقد آمن أنّه عندما تنكسر هذه الأواني الخزَفيَّة، يعود الرَّبُّ ويصنع منها أوعيَةً أخرى أفضل منها. فمحاولة تدليل هذا الجسد وحمايتُه من الضّغوطات في الخدمة هو مضيعة للوقت إذ عليه أن يموت لكي يحملَ سماتِ موت المسيح، فيختبر إذّاك القيامة معه.

هذا لا يتناقض بالطَّبع مع رعاية أجسادنا والاهتمام بها قدر المستطاع، لكن علينا ألا نخاف ونندَمَ عندما يُسكبُ هذا الجسد ويُتلفُ في خدمة المسيح، لأنَّ ذاك أفضل جدًّا. لقد عبَّر القدّيسون عبر التاريخ وفي أماكن متعدِّدة عن فوائد الألم في الحياة المسيحيّة.

تعرّض بولس الرَّسول للمرض والسُّخرية والاضطهاد والألم، إلاّ أنَّ قوَّة الرّوح القدُس الذي سكن في داخلِه جعله يعمل بلا ملل أو كلل أو فشل. فالخارج عنده كان يئنُّ معبِّرًا ويصرخ وربّما ييأس، أمّا الدّاخلُ فكان يتجدَّد من قوَّةٍ إلى قوَّة.

يبدو الرَّسول حسب المفهوم البشري أنَّه غير محظوظ إذ قال: "مُكتئبين في كلّ شيء"، إلاّ أنّ الظاهر يخدع إن لم يتمَّ فحصُه على

نـور كلمـة اللـه ومعرفـة حقيقة مـا يجري فـي الجوهر. لقد عرض الرَّسـول بولـس لائحـة ببعـض التجـارب التي تعـرَّضَ لهـا: "فإنّـي أرى أنّ اللـه أبرزنا نحـن الرُّسـلَ آخريـن، كأنّنا محكوم علينـا بالموت. لأنّنا صرنـا منظرًا للعالم، للملائكـة والنّـاس. نحـن جهّـال مـن أجـل المسـيح، وأمّـا أنتم فحكمـاء في المسـيح! نحـن ضعفـاء، وأمـا أنتـم فأقويـاء! أنتم مُكرّمـون، وأما نحـن فبِلا كرامـة!" (١كورنثـوس ٤: ٩ و١٠). كان يُنظَـرُ إليـه كجاهـل وكضعيـف وبـلا كرامـة. هـذا مـا قـد بـدا للنّـاس كصـورة خارجيَّـة لأنَّ الإنسـان إنّمـا ينظـر إلـى الوجـه. لكـن هـذا الرَّسـول أظهـر مـن خـلال ردَّةِ فعلـه أنَّه لـم يرفض التحدّيـات، بـل فهـم العمـقَ الحقيقـيَّ والفائـدة منهـا إذ قـال أيضًـا: "إلـى هـذه السَّـاعة نجـوع ونعطـش ونعـرى ونُلكَـمُ وليـس لنـا إقامـة، ونتعـب عامليـن بأيدينا. نُشـتَمُ فنبارك. نُضطَهَد فنحتمل" (١كورنثـوس ٤: ١١ و١٢). لقـد بـارك علـى الرّغـم مـن الشَّـتيمة، واحتمـل علـى الرّغـم مـن الاضطهاد لأنّـه فهـم ووثـقَ بحكمـة اللـه وقوَّتـه. لا يُمكـن أن ينجـح أيُّ خـادم فـي اختبـار صعـب مثـل هذا بدون إيمانٍ بسـيادة اللـه المُطلقة على كُلِّ شـيء، وبأنَّـه هـو مـن يسـمح بالظروف بغَـضِّ النَّظَر عـن ماهيّتِها، وهو نفسـه من سـيحوِّلُ الـكُلَّ لخيـر أحبّائـه ومجـد اسـمه. **مـن يجعـل مـن الضَّعـف قـوَّة، ومـن يجعـل مـن الألـم بركـة، هـو وحـده مـن يسـتحِقُّ أن يُعبد.**

نحـن نـدرك اليـوم تمـام الإدراك مقـدارَ وأهميَّـةَ مـا نتجَ عـن خدمة بولـس الرَّسـول، فنفـرح ونتعـزَّى، ذلـك لأنَّ كثيرين في زمانه لـم يفعلوا. لقـد واجـه وثبَـتَ علـى الرّغـم من قسـاوة ما حـدث معه وما مـرَّ به لأنّه آمـنَ ووثِـقَ: "يُفتـرى علينـا فنعـظ. صرنا كأقذار العالم ووسَـخ كلّ شـيءٍ إلـى الآن"(١كورنثـوس ٤: ١٣). إنَّ المسـيحيَّة التـي تتجاهـل التَّعليـم

بشأن قبول الألم والاضطهاد والتَّضحية لأجل المسيح هي مسيحيَّة رخيصة وسطحيَّة.

الرَّسول المؤمن

إنّ سيرة الرَّسول بولس تُظهر مدى إيمانه، وليس مدى قُدراته وطاقاته. فقد امتلكَ روحَ الإيمان الذي به تكلَّم ووعظ وعلَّم: "فإذ لنا روحُ الإيمان عينه، حسب المكتوب: آمنتُ لذلك تكلّمت. نحن أيضًا نؤمن ولذلك نتكلّم أيضًا" (٢كورنثوس ٤: ١٣). لقد كان عبدًا ضعيفًا، لكنه امتلك إيمانًا عظيمًا. سافر متكلِّمًا في أماكن عديدة وواعظًا على منابر كثيرة ومعلِّمًا كثيرين، إنّما بكلام الله وليس بكلامٍ من نفسه. وبهذا وافقه الرَّسول بطرس بدعوةٍ مُماثلة لجميع من يتكلّم باسم الرَّبّ، فقال في رسالته الأولى: "إِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فَكَأَقْوَالِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَخْدِمُ أَحَدٌ فَكَأَنَّهُ مِنْ قُوَّةٍ يَمْنَحُهَا اللهُ، لِكَيْ يَتَمَجَّدَ اللهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ" (٤: ١١).

ليس كُل كلام روحيٍّ أو تبشيريٍّ ذا تأثيرٍ فاعل، لأنَّه قد يكون من نتاج ذاكرة الجسد أو نتيجة مجهود بشري. فعلى الرّغم من أنَّ كرازة الرَّسول كانت نابعة من كلمات الإنجيل البسيطة والواضحة، إنَّما مصدرها كان الإيمان الواحد المُسلَّم مرَّةً للقدّيسين؛ ذلك الرُّوح الذي يُحيي، ومن دونه لن نشهد أيّة نتيجة حتى لو حاولنا تكرار أسلوب الرُّسل بعيدًا عن تلك الرّوح نفسِها. **لا يوجد وصفة ولا صيغة لصنع المعجزات، إنّما الرّوح الواحد يصنعُها متى يشاء** كما يقول الكتاب:

"الرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ" (يوحنّا ٣: ٨).

كان هذا الإيمان مُعطى للرَّسول بولس، إنَّما ليس من صُنعه، إذ هو نتيجة عمل نعمة الله الفعَّالة بحسب مشيئة الله ومسَرَّته: "وَلَكِنْ لَمَّا سَرَّ اللهَ الَّذِي أَفْرَزَنِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَدَعَانِي بِنِعْمَتِهِ... لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْمًا وَدَمًا" (غلاطية ١: ١٥ و١٦). هذا ما يميِّز الإيمان الذي هو نتيجة زرع الله عن الإيمان الذي هو نتيجة عمل بشريّ، بحيث لن يصمدَ مع الوقت. لقد أكَّد يسوع هذه الحقيقة إذ قال في إنجيل متى: "كُلُّ غَرْسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيُّ يُقْلَعُ" (١٥: ١٣).

إنّ الإيمانَ الذي امتلكه وعاشه بولس كان الإيمانَ نفسَه الذي تسلّمه من الرَّبّ: "لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا" (١كورنثوس ١١: ٢٣). وانطلاقًا ممّا هو مكتوب في هذه الآية، نستنتج أنَّه لا يوجد إيمان خاصّ أو بشارة خاصَّة تتغيّر مع كلِّ جيل أو فئة من المجتمع، بل هناك إيمان واحد من صنع الله وحده: "مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى، بِكَلِمَةِ اللهِ الْحَيَّةِ الْبَاقِيَةِ إِلَى الأَبَدِ" (١بطرس ١: ٢٣). لقد كان بولس رسولًا من الله ومؤمنًا إيمانًا من صنع الله. هذا الإيمان نفسُه يحتاجه كلُّ خادم في كلِّ زمان ومكان، وهو عطيَّة إلهيَّة وليس موقفًا بشريًّا مُستقلًّا بمُسَبّباته: "لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ" (أفسس ٢: ٨).

إنّ إيمان الرَّسول بولس جعله ينتظر الجعالة بسرور، على عكس ما يظنُّ البعض بأنَّ الإيمان هو تأكيدُ الحصول على الطلب. رسالة

العبرانيّين تسلّط الضَّوء على هذا النَّوع من الإيمان: «فِي الإِيمَانِ مَاتَ هَؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ، وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ» (العبرانيّين ١١: ١٣). فهم عاشوا الإيمان على الرّغم من عدم نَيلِ الموعد بعد.

هناك فرقٌ بين أن يسمع الله صلاتَنا وأن يعطيَنا ما نريد. فالمؤمن الحقيقيّ يفرح عندما يعلم أنّ طلبته قد سُمعت: «أحببتُ لأنّ الرَّبَّ يسمع صوتي، تضرُّعاتي» (المزمور ١١٦: ١)، إنَّما يعلم أنَّ الجواب لن يكونَ دائمًا كما يريد. فهو يفرح لمجرّد أنَّ الرَّبّ سمِعَ له ويتعزَّى بأنَّه مهتمّ، وبأنَّه يعمل ما هو لخيره. من المهمّ أن نعرف أنَّ الرَّبّ قد لا يستجيب بناءً على مشاريعنا أو أفكارنا أو طلباتنا: «لأنك أنقذت نفسي من الموت، وعينيَّ من الدَّمعة، ورجليَّ من الزَّلَق. أسلك قدّام الرَّبّ في أرض الأحياء. آمنت لذلك تكلّمت: أنا تذلّلت جدًّا» (المزمور ١١٦: ٨ -١٠). هذه كلمات تعبِّر فعلاً عن الإيمان الحقيقيّ، ليس في أن يفعل لنا الرَّبّ ما نريد، بل في أنَّنا نؤمن أنّه يسمعنا وأنّه يعلم ما يجب أن يفعله. إذّاك نُسلِّم ونثق بمشيئته وصلاحه على الدّوام.

إنّ الامور الصَّعبة التي مرّ بها الرَّسول بولس أظهرت أيضًا إيمانه الثابت. فهي لم تُبعده عن الرَّبّ، ولا جعلته يطلب الرَّاحة لنفسه على حساب رسالة الإنجيل، بل أظهرت أكثر مدى اتّكاله على الرَّبِّ ومدى انتظار وعودِه أكانت قريبة التَّحقيق أم بعيدة عن ذلك: «لذلك لا نفشل، بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى، فالدَّاخل يتجدَّدُ يومًا فيومًا. لأنّ خفَّة ضيقتنا الوقتيَّة تُنشئ لنا أكثر فأكثر ثقلَ مجدٍ أبديًّا. ونحن غيرُ ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى. لأنّ التي تُرى وقتيّة، وأمّا

التـي لا تُـرى فأبديّة» (٢كورنثـوس ٤: ١٦ -١٨).

الرَّسول المُكرَّس

وصـف الرَّسـول معاناتـه فـي الخدمـة فـي رسـالته الثانيـة إلـى كنيسـة كورنثـوس بهـذه الكلمـات: «بَـلْ فِـي كُلِّ شَـيْءٍ نُظْهِـرُ أَنْفُسَـنَا كَخُـدَّامِ اللهِ، فِـي صَبْـرٍ كَثِيـرٍ، فِـي شَـدَائِدَ، فِـي ضَـرُورَاتٍ، فِـي ضِيقَـاتٍ، فِـي ضَرَبَـاتٍ، فِـي سُـجُونٍ، فِـي اضْطِرَابَـاتٍ، فِـي أَتْعَـابٍ، فِـي أَسْـهَارٍ، فِـي أَصْـوَامٍ، فِـي طَهَـارَةٍ، فِـي عِلْـمٍ، فِي أَنَاةٍ، فِـي لُطْفٍ، فِي الـرُّوحِ الْقُدُسِ... بِمَجْـدٍ وَهَوَانٍ. بِصِيـتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَـنٍ. كَمُضِلِّيـنَ وَنَحْنُ صَادِقُـونَ. كَمَجْهُولِينَ وَنَحْنُ مَعْرُوفُـونَ. كَمَائِتِيـنَ وَهَـا نَحْـنُ نَحْيَـا. كَمُؤَدَّبِيـنَ وَنَحْـنُ غَيْـرُ مَقْتُولِيـنَ. كَحَزَانَـى وَنَحْـنُ دَائِمًـا فَرِحُونَ. كَفُقَـرَاءَ وَنَحْـنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ. كَأَنْ لاَ شَـيْءَ لَنَـا وَنَحْـنُ نَمْلِـكُ كُلَّ شَـيْءٍ» (٦: ٤ -١٠). إنّ كلماتـه هـذه تجعلنا في حيرَةٍ عمّـا إذا كان سـعيدًا أم حزينًـا أثنـاء كتابـة هـذه الرِّسـالة التـي فيهـا يصف كلفـة تكريسـه للمسـيح وواقـع حياتـه المتناقضـة بحسـب الظّاهـر. فنحن نقـرأ عـن الألـم مترافقًـا مع الفـرح، وعـن الصّيت الـرَّديء بجانـب الصِّيت الحسَـن. كمـا نقـرأ عـن اضطهـاداتٍ وضربـاتٍ مـع أنَّه خـدم ملـك الملوك وسـيِّد كلِّ الأرض! فكيـف للـذي يعمـل مـع الـرَّبّ بهـذا التكريـس الكبيـر تكـون حياتُـه مليئـة بكلِّ هـذه التَّناقضات؟ لكنَّ السُّـؤال الأصَحّ فيجب أن يكـون: هـل مـا نـراه مـن تناقضـات فـي كلام الرّسـول هـو فعلًا كذلـك، أم هـو واقـع حتميّ وطبيعـيّ لجنـدي يحـارب فـي الخـطِّ الأماميّ؟

والجديـر بالذّكـر هنـا، أنَّـه علـى الرّغـم مـن الأمـور الصَّعبـة التي كان

يمـرُّ بهـا، إلاّ أنَّـه امتلـك كلَّ شَـيء: «كأنّ لا شَـيءَ لنـا ونحـن نملـك كلَّ شـيء.» مـن الواضـح في هـذا الأمر أنَّ الظّاهـر لا يعكس الحقيقـة. فعندما تكـرَّس بولـس للـرَّب، تـرك كلَّ شَـيْءٍ بمـا فيـه حيـاة الرَّاحـة، لكـي يمتلكَ بالمقابـل كلَّ شـيء.

كان بولـس يـدرك أنّ المؤمـن المسـيحيَّ هـو وارث مـع المسـيح، وبالتالي فهو سـيملك كُلّ شـيء. إنّها حقيقة مهمّة تصف الحياة المسـيحيّة الحقيقيّـة. فخدمـة المسـيح لا يمكـن أن تُقـارن بخدمـة شـخص آخـر أو بوظيفـة أخـرى. ربّمـا يبـدو الأمـر أنّـه خسـارة وضَيـاع لمَـن يُحـبُّ العالم الحاضـر أكثـر مـن المسـيح. **إنّ خدمـة المسـيح هـي الدّعـوَة الأسـمى، والاسـتثمار الأذكـى، والمُتعـة الأروَع فـي جميـعِ مباهج العالـم مُجتمعة.**

هـذا هـو النَّمـوذج والمثال لـكلِّ من يرغـب أن يخدم المسـيح خدمة مقبولـة. ربّمـا نعـرف بعضًـا مِمَّـن يخدمـون الإنجيـل، لكنّهـم فـي الوقـت عينِـه مشـغولون بشـغفٍ بقضايا أخرى جانبيَّة ودنيويَّـة لا تصبُّ في خدمة الهـدف الواحـد والشَّـخص الواحـد والقضيَّـة الواحـدة. فهم قد نسـوا أنّه لا مجـال للمُسـاومة أو المُفاوضـة فـي موضـوع التَّكريـس، إذ انَّ الاهتماماتِ المُناقضَـة للتّكريـس سـوفَ تجعـلُ طريقَـه صعبًـا، والتَّعريج بيـن الفرقتين يدمِّـرُ جوهـرَ ومفهـوم التَّكريـس بالكامـل. فمن يضـع يده علـى المحراث، يجـب ألاّ ينظـر إلـى الـوراء كمـا قال يسـوع، إذ من الواضـح أنَّ التكريس لا يسـمح بـأيِّ شَـكلٍ من الأشـكال بالمشـاركة: «لاَ تَكُونُـوا تَحْتَ نِيرٍ مَـعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِيـنَ، لأَنَّـهُ أَيَّـةُ خِلْطَـةٍ لِلْبِـرِّ وَالإِثْـمِ؟ وَأَيَّـةُ شَـرِكَةٍ لِلنُّـورِ مَـعَ الظُّلْمَةِ؟ وَأَيُّ اتِّفَـاقٍ لِلْمَسِـيحِ مَـعَ بَلِيعَـالَ؟ وَأَيُّ نَصِيـبٍ لِلْمُؤْمِـنِ مَعَ غَيْـرِ الْمُؤْمِنِ؟»

(٢كورنثوس ٦: ١٤ و١٥). **إمّا أن نعطيَ المسيح كُلَّ شيء، أو لا نعطيَه شيئًا، لأنّه سَبَقَ وأعطانا كُلَّ شيء.**

استخدم الرَّسول بولس ثلاث صور مهمّة من واقع الحياة ليُضيءَ على نواحٍ مُميَّزَة وخاصَّة يجب أن يستعدَّ لها من يريد أن يتكرَّس قبل أن يفعل. كثيرون لا ينجحون بالحفاظ على تكريسهم، والسَّبب لأنَّهم لم يحسبوا حساب النَّفَقة قبل إقدامِهم على هذا الالتزام.

التَّعَب

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ خدمة المسيح ليست بالأمر السَّهل، بل هي عمل مضنٍ ومتعِب يتطلّب جهدًا وسَهرًا وتضحية. فالباب ضيّق والطّريق كَرْب ومحفوف بالمواجهات. إنّه طريق الجلجثة. وعلى الرّغم من أنّ الرَّبّ يستطيع أن يجعل هذا الطَّريق سهلًا ومفروشًا بالورود إذا صَحَّ التعبير، إلّا أنّ السُّؤال الذي يرتسم في أذهاننا دائمًا، لماذا لا يفعل؟

يستخدم بولس الرَّسول صورة الزَّارع ليصف الخدمة، حيث يكون العمل متعبًا ويدويًّا، يلفُّه الجهادُ والكَدحُ والتعرُّض لكلِّ متغيّرات الطقس، من بردٍ وحرٍّ وشمس محرقة وغير ذلك. قال في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «فمن هو بولس؟ ومن هو أبلّوس؟ بل خادمان آمنتم بواسطتهما، وكما أعطى الرَّبّ لكلّ واحد: أنا غرست وأبلّوس سقى، لكنّ الله كان ينمّي. إذًا ليس الغارس شيئًا ولا السَّاقي، بل الله الذي ينمّي. والغارس والسَّاقي هما واحد، ولكن كلُّ واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه» (٣: ٥ -٨). فالأجرة ستكون على قدر

التَّعَـب، والانتظـار هنـا أمـرٌ حتمـيٌّ قبـل ظهـور النَّتائـج. بالتالـي، فـإنّ أي انطلاقـة لمفهـوم الحيـاة المسـيحيّة خـارج مفهـوم الخدمـة والتَّعـب لهـو مفهـوم خاطـئ، يوصلنـا إلـى متاهـاتٍ لا تُحمـد عقباهـا في حيـاة الإيمان. لكـنّ التَعَـب والجهاد في خدمة الـرَّبّ يجمعان للمؤمن كنوزًا في السَّـماء: «لأنّ اللـه ليـس بظالم حتى ينسـى عملكم وتعبَ المحَبَّـة التي أظهرتموها نحـو اسـمه، إذ قـد خدمتـم القدّيسـين وتخدمونهـم» (العبرانيّيـن ٦: ١٠). إنّـه يتحـدّث هنا عـن تعب المحبّـة، إذ إنّ المحبّـة الحقيقيّـة تترافق دائمًا مـع التعـب. فهـي مليئة بخدمـة القدّيسـين والاهتمام بهم علـى الرّغم من مشـاكلهم وضعفاتهـم، وأحيانًـا عـدم تقديرهـم. هـذا النّوع مـن المحبّة لا ينسـاه الـرَّب. **المحَبَّـة التـي لا تتعـب سـرعان مـا تُنسـى ويـزول تأثيرهـا.** فالخدمـة التـي لا يُنفِـقُ صاحبُهـا مـن نفسـه، لن تربـح الكثير مـن النُّفوس ولـن تؤتـي الثّمَـر المطلـوب. لـم ينـسَ الرَّسـول بولـس أتعـابَ الآخريـن نحـوه علـى الرّغـم مـن مشـاغله الكثيـرة. قـال: «سـلّموا علـى مريـم التـي تعِبَـت لأجلنـا كثيـرًا» (رومية ١٦: ٦). إنّهـا المحَبَّة العمليّـة التي تظهر حقًّا مـن خـلال خدمـة الآخريـن والتَعَـب والتَّضحيـة من أجلهـم. فهـي الإيمان العامـل كمـا قـال إلى التسـالونيكيّين: «متذكّرين بلا انقطـاع عملَ إيمانكم، وتعـب محبَّتكـم، وصبـرَ رجائكـم، ربّنـا يسـوع المسـيح، أمـام اللـه وأبينا» (١تسـالونيكي ١: ٣). فـلا صورة للمحبّة الحقيقيّة مـن دون تعَبٍ ومجهود، إذ ليسـت المحبَّـةُ حقيقيّـةً، ولـن تكون يومًـا كذلك، إذا قُدِّمَتْ بشـروطٍ أو إذا أعطَـتْ مـن أعطاهـا أوَّلاً.

فالمؤمـن يُظهـر نفسـه كخـادم لله مـن خـلال التَعَب الـذي يضعه في إظهـار محبّتِـه للمسـيح، وهـذه المحبّـة تتجلّـى بوضـوح على قـدر التَعب

الـذي يوضـع في الخدمـة، ذلك الذي يُبـذل لأجل مجدِ اللـه وليس للتفاخر أو إرضـاء الذات.

الجهاد

شـبَّهَ الرَّسـول أيضًـا الخدمـة كمـن يشـارك فـي الحـرب. فـلا مجـال فيهـا للاسـترخاء والاسـتجمام، بـل تحتـاج إلـى سـهر ويقظـة واسـتعداد دائـم للتحدّي: «فقط عيشـوا كما يحقّ لإنجيل المسـيح، حتى إذا جئت ورأيتكم، أو كنـت غائبًـا اسـمع أمورَكم أنَّكم تثبتـون في روح واحـد، مجاهدين معًا بنفسٍ واحـدة لإيمـان الإنجيـل» (فيلبّـي ١: ٢٧). عندمـا يختـار المؤمن أن يعيـشَ كمـا يحـقّ لإنجيل المسـيح وكما يرغب المسـيح، فهـو إنّما ينخرط فـي حـرب روحيّـة ضـدَّ أعـداء كُثـر، الجسـد والعالـم والشَّـيطان. صحيـح أنَّ المسـيح هـو معنـا فـي كلِّ حيـن، وهـو حاضـر لنجدتنـا وسـط معركتنا مـع الأعـداء، إلّا أنَّ مسـيرتنا بعـد الإيمان ليسـت مجـرّد نُزهـة برفقته، بل معركـة لا تخلـو مـن الصِّعـاب والتجـارب والتحديـات، علينـا إكمالُهـا حتى النّهايـة. إنهـا حـربٌ ضـروس، فيهـا نجاهد ونهجـم وندافع كُلَّ يـوم، بل في كلِّ سـاعة ضِـدَّ الأعـداء المحيطيـن بنا.

يتمثَّـل الجهـاد أوَّلًا بالصَّـلاة. إنَّهـا حاجتنـا الدّائمـة، ونبـض طبيعتنـا الجديـدة. لكـنَّ حيـاةَ الصَّـلاة تحتـاج إلـى بـذل مجهـود لكي نصـرف على نحـوٍ يومـيٍّ وقتًا مـع الرَّبّ والتأمّل في كلمته. الأعـداء متربّصون بنا إذ هم لـن يكفّـوا عـن محاربتنـا ومضايقتنـا وإيجـاد كل سـبب لكـي يبعدوننا عن حيـاة الشَّـركة مـع الـرَّب. وهنـا تكمـن الصُّعوبـة. لقد صـارع إبنُ الإنسـان

نفسَـه محافظًا علـى شـركته الدَّائمـة مـع الآب: «وإذ كان فـي جهـادٍ كان يصلّـي بأشـدّ لجاجـة، وصـار عرقـه كقطـرات دَمٍ نازلـة علـى الأرض» (لوقا ٢٢: ٤٤) وهـو الـذي: «فِيـهِ سُـرَّ أَنْ يَحِـلَّ كُلُّ الْمِـلْءِ» (كولوسـي ١: ١٩).

كان الـرَّبُّ يسـوع مثالًا حيًّا لنـا أثنـاء تجسُّـدِهِ فـي كلِّ شـيء، وهـذا يشـمل موضـوع الجهـاد الرُّوحـي. فهـو جاهـد بالصَّـلاة وثابر مجاهـدًا في البشـارة وأثنـاء اجتراحـه المعجـزات، كمـا فـي صنـع الخيـر. فالابتعاد عن الصَّـلاة يخسِّـرُنا تدريجيًّا التواصـلَ مـع اللـه وتلـك العلاقـة الحميمـة، بمـا فـي ذلـك البـركات والتوجيهـات الكثيـرة التـي تأتـي مـن خـلال ذلـك. إنّ الصَّـلاة ليسـت أمـرًا سـهلًا، بـل هـي عمليّـة مسـتمرَّة تحتـاج إلـى إيمـان ووقـتٍ وتركيـزٍ وهـدوء. لذلـك فهـي تَحَـدٍّ دائم، يحتـاج إلى موقـفٍ ثابتٍ والتـزام ضـدَّ عناصر التشـويش الكثيرة. فمن دون حيـاة الصَّلاة لا يمكن أن نربـح الحـرب، إذ إنَّ التواصـل مـع القيـادة هو أمرٌ أساسـيٌّ وبالـغ الأهميَّة لضمـان النَّصـر. ولا بـدّ هنـا مـن الإشـارة إلـى أنّ الجهـاد يجـب أن يكـون ضـدّ نفوسـنا التـي تشـتهي وتطلـب أمـور العالـم وتنجـذب إلى مشـاريعه وأفـكاره وأنظمتـه. فالإنسـان القديـم يكـرَهُ الجهـاد والكفـاح، وهـو ميَّـالٌ إلـى أن يفعـلَ مـا هو عكس مشـيئة الرَّبّ. وعليـه، كُلّما زادت نفوسُـنا ثقةً بقدراتنـا وقوَّتِنـا، ضعفـت خدمتنـا. فعندما نُفسـح فـي المجـال للنَّفس أن تظهـر وتتكبّـر وتنافـس، يكـون السُّـقوط الرُّوحـي مدوِّيًـا، وبالتالـي تكـون الخسـارة فـي الحـرب كبيرة. **يتمثَّـل الجهادُ ضِـدَّ النَّفس في ضبـط الأفكار واللّسـان، ثـمَّ عيـش التواضـع والاعتمـاد الكلّـي علـى الصَّلاة.**

يغيـبُ عـن بالنـا فـي كثيـر مـن المـرّات أنَّ كلَّ خدمـة للـرَّبّ لا بدَّ أن

تنجح وأن تثمر، بغَضّ النَّظَر عمّن يخدمُها. فالنَّصرُ آتٍ من خلالنا أو من دوننا، ذلك لأنَّ الأمر يتعلَّقُ بالرَّبّ وحده وليس بنا، ولسنا نحن سوى عبيدٍ بطَّالين ليس إلّا.

في ضوءِ هذه الحقيقة، على الخدّام أن يدركوا أنَّه في أحيان كثيرة ربّما تكون آراءُ الآخرين وخبراتُهم أفضلَ من آرائِهم وخبراتِهم. فوقوفُ الخادم عند رأيه والإصرار عليه من دون الأخذ بعين الاعتبار ما لدى غيره من أصحاب الخبرة والتجربة من آراء وأفكار ونصائح، يكشف عن ضعفٍ نتيجتُهُ الخسارَةُ والانكفاء.

تبقى الأنا العدوَّ الّلدودَ حتى لخدّام المسيح. قد يأملُ الخادمُ أن ينال التَّقدير والمكافآت والاحترام والاصغاء من الجميع بسبب إخلاصِهِ وأمانتِه في الخدمة. حتى لو كان الحالُ كذلك فعلًا، يجب ألّا يتوقَّع أكثر ممَّا عبَّر عنه الرَّسول بولس حينما قال: «كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ.» يظنَّ بعضٌ من الخدّام أن نجاحَهم مرتبط بكونِهم في المراكز الأولى، فيما الحقيقة أنَّ هذا الأمرَ هو قمَّة الاتّكال على الجسَد وعلى الأنا وحُبِّ الظُّهور. لقد كان الرَّسول بولس مستعدًّا بكلِّ رضى أن يخدم متنكِّرًا لنفسه، بعيدًا عن الاستئثار وحبِّ الذّات. أوَليس هو من وصف حالَ خدمتِه بهذه الكلمات: «بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ. كَمُضِلِّينَ وَنَحْنُ صَادِقُونَ.» لقد اتّكل على نعمة الله وروحِهِ القدُّوس، لا على نسَبه، أو صيته، أو خبرته، أو تضحياته، أو أمانته للرَّبّ، أو مركزه كرسول. **إنَّ الخادم ليس القائد العظيم الذي يُطاع فقط، بل هو البوق الوديع والمتواضع الذي غالبًا ما لا يحظى بالكرامة من النّاس.** لذلك،

فـإنّ الإغفـال عـن الجهـاد ضـدَّ النَّفس لهـو استسـلامٌ، بـل محاربة بأسـلحَةِ الـذّات والأنـا، بعيدًا عـن الأسـلِحَةِ الرُّوحيَّة.

المغامرة

تحتـوي خدمـة الـرَّبّ، كتشـبيهٍ ليـس أكثـر، علـى شَـيءٍ مـن المغامـرة. فهـي ليسـت رحلـة هدفُهـا التَّسـلية والترفيـه، بـل هـي مغامـرة محفوفـة بالمخاطـر، وحـده الـرَّبّ يضمـنُ نتيجتَهـا. لكـن علـى الرّغـم مـن كلِّ التحدّيـات التـي ترافقهـا، إلّا أنّهـا مغامـرة رائعـة وممتعة في خدمـة الرَّبّ ومفعمـة بمَحبَّتِـه. مثـالًا علـى ذلـك هـو مـا جـاءَ فـي إنجيـل متـى ٢٥، في مثـل الوزنـات الـذي رواه الـرَّبّ يسـوع. إنَّـه مَثَلٌ يعبّـرُ فعلًا عـن المغامرة فـي تجـارة الوزنـات التـي نُعطاهـا. واحد مـن العبيـد، وبسـبب خوفه من سـيِّده ومفهومِـهِ الخاطـئ عـن صفاتـه، قـامَ وأخفـى وزنتـه فـي الأرض متّخـذًا قـراره بعـدم المغامـرة. فهـو راغـبٌ فـي أن يعيـدَ الوزنـة كما هي إلـى صاحبهـا مـن دون خسـارةٍ أو ربـح. أمّا المسـيح فقـد وصفه بالشـرِّير والكسـلان. هـذا بالتمـام مـا يحـدُث فـي كثيـر مـن الأحيـان فـي خدمـة الـرَّبّ. فخشـيَتُنا مـن الفشـل تَقودُنـا إلـى عـدم المغامـرة، وبالتّالـي طَمـرِ إمكاناتنـا، وطاقاتنـا ومواهبنـا ووقتنـا في رمـال التردُّد والحيـرة والارتباك. إنّ المغامـرة فـي خدمة الرَّبّ لأمرٌ ضروريّ وأساسـيّ، إذ هو يكسِـر الشَـكّ ويُصدّع الكسـل ويُلاشـي الخـوف. **إنَّ الخدمة لمغامرَةٌ مُربكـة من النّاحية البشـريَّة، لكنَّهـا فـي الوقـت عينـه ملفوفـة بالضَّمـان والأمان مـن النّاحية الرُّوحيَّـة، مهمـا بـدت نتائجُها عكس ذلك:** «فَـإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَـهُ يُهْلِكُهَـا وَمَـنْ يُهْلِـكُ نَفْسَـهُ مِـنْ أَجْلِـي يَجِدُهَـا» (متـى ١٦: ٢٥).

إنَّ كلَّ مغامـرَةٍ وتضحيـة مـع الـرَّبّ ولأجله هي مغامـرة مليئة بالرِّبح والثمـر، فتترافـقُ إذًاك التَّضحية مع اسـتعدادٍ لكلّ الاحتمالات، على أسـاس أنَّ لا شـيء لنـا، لكنّنـا نملك كلّ شـيء. فالـرَبّ يصنع عظمـاء ممّن يعطونه الأفضل.

وبنـاءً علـى هـذه المبـادئ الثابتـة، يجب عدم اسـتبدال الألـم والجهاد والتَّعَـب بأسـاليب بشـريّة تكـون أكثـر سـهولة مـن أجـل تحقيـق النَّجـاح. فالبدائـل دائمًا معروضة والنتائج الكاذبة والمغشوشـة حاضرة وباسـتمرار أيضًا.

ويبقـى السُّـؤال: «هـل نخدم من أجل الرَّبِّ أو من أجل أنفسـنا؟ وهل نقـوم بالخدمـة برخـاوةٍ وخفّـةٍ أو بـروح التكريـس والجهـاد والمغامرة؟» فالخدمـة التـي هـي مـن أجل الـرَّبِّ لا يمكن إيقافُهـا أو إفشـالها. فمن هو علـى اسـتعدادٍ لخسـارة كلّ شـيء من أجل خدمـة الرَّبّ، يعلم أنَّ لا شـيءَ ذا قيمَةٍ من دون المسـيح، وأنَّه لن يفشـل إذ هو لا ينتظر ولا يتوقّع شـيئًا لأجل نفسـه.

لـم يُثمِّـنْ بولـس الرَّسـول نفسـه ولا حاجاتـه، بـل أنفـق مـا تبقّى من حياتـه للمسـيح فـي خدمـةٍ هـي الأهـمّ دوَّنَهـا الوحـيُ المُقـدَّس لا لتكـون إحـدى الأمثِلـة، وإنَّمـا النَّمـوذج والمِثـال الأوحَـد لـكُلِّ خـادم للإنجيـل: «وَلَكِنَّنِـي لَسْـتُ أَحْتَسِـبُ لِشَـيْءٍ وَلاَ نَفْسِـي ثَمِينَةٌ عِنْدِي حَتَّـى أُتَمِّمَ بِفَرَحٍ سَـعْيِي وَالْخِدْمَـةَ الَّتِـي أَخَذْتُهَا مِنَ الرَّبِّ يَسُـوعَ لأَشْـهَدَ بِبِشَـارَةِ نِعْمَةِ اللهِ» (أعمـال ٢٠: ٢٤).

الفصل

٧

كما للرَّبّ

«عليَّ أن أتفادى ما لا أستطيع أن أفعله لمجدِ الرَّبّ.»

آرثر بينك

يُقدّم لنا الرَّسول بولس في رسالته الثانية إلى كنيسة كورنثوس مُلخَّصًا لسيرته وخدمته فيقول: «وَلَسْنَا نَجْعَلُ عَثْرَةً فِي شَيْءٍ لِئَلاَّ تُلاَمَ الْخِدْمَةُ. بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ نُظْهِرُ أَنْفُسَنَا كَخُدَّامِ اللهِ، فِي صَبْرٍ كَثِيرٍ، فِي شَدَائِدَ، فِي ضَرُورَاتٍ، فِي ضِيقَاتٍ، فِي ضَرَبَاتٍ، فِي سُجُونٍ، فِي اضْطِرَابَاتٍ، فِي أَتْعَابٍ، فِي أَسْهَارٍ، فِي أَصْوَامٍ، فِي طَهَارَةٍ، فِي عِلْمٍ، فِي أَنَاةٍ، فِي لُطْفٍ، فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ، فِي مَحَبَّةٍ بِلاَ رِيَاءٍ، فِي كَلاَمِ الْحَقِّ، فِي قُوَّةِ اللهِ بِسِلاَحِ الْبِرِّ لِلْيَمِينِ وَلِلْيَسَارِ. بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ. بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ. كَمُضِلِّينَ وَنَحْنُ صَادِقُونَ. كَمَجْهُولِينَ وَنَحْنُ مَعْرُوفُونَ. كَمَائِتِينَ وَهَا نَحْنُ نَحْيَا. كَمُؤَدَّبِينَ وَنَحْنُ غَيْرُ مَقْتُولِينَ. كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِماً فَرِحُونَ.

كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ. كَأَنْ لاَ شَـيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَـيْءٍ» (٦: ٣-١٠). أوَليسـت هـذه سـيرَةَ حياةٍ تعبـقُ بالتَّناقضات والتغيرُّات والمشـاعر المتضاربـة التـي تعكـس عمـق ما كان يحـدث داخل هذا الإنسـان العظيم. فهـو قـد فَهِـمَ بحكمـة ضيقاتـه أثنـاء الخدمـة، وتمتَّـع في الوقـت نفسِـه بالثبـات والوفـاء والـولاء لسـيِّده، مـن دعـاه واختـاره ليحمـل اسـمَه. وهو الـذي فَقَـدَ سِـمعتَهُ أمـام كثيريـن، لكنّـه لـم يفقُـد وعْيَـه لحقيقـة مقامِـه فـي المسـيح. لـم يسـمح للكلفـة العاليـة التـي تكبَّدهـا أن تشـوِّش علـى واقـع غنـاه الرُّوحـي. **فـلا قيمـة لمـا يُنفِقُـهُ الخـادم أمـام بـركات السَّـماء التـي تفيـض فـي داخلـه.** صَبَر هذ الرَّسـول وتحمَّـل الكثير لأنَّـه أدرك هذا الحَـقَّ ولأنَّـه لـم يُـردْ أن يعثُـرَ أحـدًا، بل سـعى بكلِّ قوَّتِـه أن يُقـدِّم المِثال والنَّمـوذج الـذي يُمَجِّد المسـيح. مـن المنطقيّ أن نسـتنتج أنَّ الإنتقال بين المتناقضـات لـم يكـن بالأمـر السَّـهل. فهـو أتـى على ذكـر الحـزن والفرح، المـوت والحيـاة، الصّيـت الـرَّديء والصِّيـت الحَسَـن، بالإضافـة إلـى كلِّ الأخطـار والشَّـدائد والاضطهـادات المرافقـة. **خدمـة النَّاس ليسـت مُسِـرَّة إلا عندمـا يمارسُـها الخـادم «كمـا للـرَّبّ» وليـس للنَّـاس.** هـذا مـا اختبـره هـذا الرَّسـول وقـد دعانا جميعًا أن نحـذو حـذوَه «وَكُلُّ مَا فَعَلْتُـمْ فَاعْمَلُوا مِـنَ الْقَلْـبِ، كَمَـا لِلـرَّبِّ لَيْـسَ لِلنَّـاسِ عَالِمِيـنَ انَّكُـمْ مِـنَ الـرَّبِّ سَـتَأْخُذُونَ جَـزَاءَ الْمِيـرَاثِ، لأَنَّكُـمْ تَخْدِمُـونَ الرَّبَّ الْمَسِـيحَ» (كولوسـي ٣: ٢٣ و٢٤).

الإحباط

إنَّ الخدمـة هـي امتيـازٌ يرافقـه إحبـاط. حتـى مـع خـادمٍ عظيـمٍ وأميـن كبولـس، قـد يتسـلّل الإحبـاط إلـى القلـب أحيانًا كثيـرة ولأسـباب متنوّعة.

فالحرب الرّوحيَّة ليست بالأمر السَّهل، بل هي مكلفة على جميعِ الأصعدة وخصوصًا لمن يخوضُها على الجبهة الأماميَّة. الاضطهاد، والمعارضة، والآلام، والنتائج غَير المَرضيَّة، والجسد الضَّعيف، هذه كلّها تجتمع وتنعكس على حياة الخادم. فالشَّيطانُ أعاق بولسَ مرَّات ومرَّات، وبعضٌ من أتباعه تركوه في منتصف الطَّريق. كما تُظهرُ رسائلُه أنَّ آخرين من أحبّائه لم يبادلوه المَحَبَّة والإخلاص اللّذَين أظهرهما لهم، ولم يقدّموا له الاعتبار والاحترام الواجب لمن تعِبَ لأجلهم. لا يوجد خدمة بلا تحدّيات وخالية من الصِّعاب، حتى ولو اعتمد صاحبُها على نعمة الله وقوّته. لقد وعدنا الله بالحفظ والنَّجاح، لكنَّه لم يعدْنا بالرَّاحة والرَّفاهيَّة. كان بولس «يُنفِقُ ويُنفَق» لأجل الإنجيل. فهو بكى مع الباكين وتألّم لأجل كُلِّ مَن كان يضعف ويخور. فالاهتمام بالآخرين يُسبِّب تعبًا نفسيًّا شديدًا، الأمر الذي ليس له علاقة بضعفِ الإيمان أو هزالِه على الإطلاق. فالإحباط واردٌ في أيَّة لحظة، ولكن علينا ألّا نسمح له بأن يسود علينا وأن يثبِّط عزيمَتَنا. فمَن واجَهَ الاحباطَ وانتصرَ عليه يستطيع أن يدعونا لعدم الفشل. أوَليس هذا ما فعله بولس؟

أمَّا العلاج فيكمن ببساطة في الثقة والاتّكال على نعمة الله من جديد. ولأنَّ بولس استخدم هذا العلاج النّافع لمشكلة الإحباط، قال لأهل كورنثوس في رسالته الأولى إليهم: «بنعمة الله أنا ما أنا» (١٥: ١٠). لقد اكتفى وقَبِل بما قسمه الرَّبّ له، أكان من مواهبَ أم من ضعفاتٍ أم آلام سمَحَ الرَّبُّ أن يمرّ بها. فعندما نتعلَّم أنَّ النّعمة وحدها مصدر كُلّ شيء في حياتنا، وأنَّنا نِتاجُ ما خُطِّط لنا من قبل الرَّبّ، إذّاك نستطيع أن نعلو على الصِّعاب ونقول في أشدّ الأوقات إحباطًا أو تشتُّتًا

أو خيبة: «أنا ما أنا بنعمتِه». ليست النتائج مقياس النّجاح، فنجاحات الرَّسول وتأثيراتُ خدمته الواسعة لم تَظهر بالقدر الذي ظهرت فيه لنا اليوم، بل على العكس، فهو اختبَرَ الوحدة وتشكيك الكثيرين به، لا سيّما في أيّامه الأخيرة. أمَّا العواطفُ فهي بدورها لا تنفع البتّة لقياس نجاح الخدمة. فهي من أكثر الأمور التي تخدع الإنسان. فإنّنا قد نفرح لما لا ينفع، ونحزن لما هو لخيرنا. أمّا المقياسُ الصَّالحُ للتأكُّد من نجاح الخدمة وطرد الإحباط، فهو التيقُّنُ من أنَّنا نتعب ونبذل كُلَّ اجتهاد في عمل الرَّبّ مُتّكلين على نعمته ومشيئته من نحونا. لقد قَبِلَ بولس مشيئة الرَّبّ له بغَضّ النَّظَر عن التحدّيات، إذ أيقن أنَّه يسير في الطريق الصَّحيح بسبب إخلاصه وتعبه للرَّبّ: «بل أنا تعِبتُ أكثرَ منهُم جميعِهِم» (١٠:١٥)، «أَهُمْ خُدَّامُ الْمَسِيحِ؟ أَقُولُ كَمُخْتَلِّ الْعَقْلِ: فَأَنَا أَفْضَلُ. فِي الأَتْعَابِ أَكْثَرُ. فِي الضَّرَبَاتِ أَوْفَرُ. فِي السُّجُونِ أَكْثَرُ. فِي الْمِيتَاتِ مِرَارًا كَثِيرَةً» (٢كورنثوس ١١: ٢٣).**إنَّ النجاح في الخدمة هو الثبات على الدَّعوة وطاعتِها بإخلاص باذلين كُلّ جهدٍ في سبيل تحقيقِها**. ليس بالنتائج ولا بالمشاعر تُقاس الخدمة، بل عندما نخدم «كما للرَّبّ». لذلك يجب أن تبقى عيونُنا فيما نخدمه موجهَّة نحوه في كلِّ الظروف.

محدوديّة معرفة الآخرين

يَتَسرَّع النّاسُ بحكمِهم بعضِهم على بعض ظانّين أنَّهم يعرفون بعضهم بما فيه الكفاية، وأنهم يمتلكون القدرة والذكاء في تحليل المعطيات الظاهرة للاستنتاج والتصنيف والحُكم. يصف الرَّسول بولس نفسه على

أنّه كان مجهولًا عند الكثيرين: «كمجهولين ونحن معروفون.» فالكثيرون من الذين حوله كانوا يجهلون الكثيرَ عنه وعن شَخصيَّتِه وعمق تجاربه وكيفيَّة تعاطيه في أمور الخدمة. فالمعرفة النَّاقصة تؤدّي إلى الأحكام الخاطئة نحو النَّاس، وبالتّالي نحو فهم معاملات الله معهم ومع الآخرين. إنَّ التسرُّع والكبرياء والادّعاءَات هي أدواتٌ تُستخدَم لتصنيف النّاس وتوقُّع أفعالهم واستنتاج أهدافهم. فقد فعلوا هذا بالرَّسول بولس وأساؤوا فهم سبب ضيقاته وآلامه تمامًا كما فعلوا مع سيّدِه. ألمْ يتمَّ محاولة تشويه صورة يسوع المسيح من البعض عندما قالوا: «هوذا إنسانٌ أكول وشرّيب خمر، محبٌّ للعشّارين والخطاة. والحكمة تبرّرت من بنيها» (متى ١١: ١٩)، محاولين بذلك إذاعة أنّه جاءَ إلى الأرض ليقضي بعض الوقت الضَّائع بالتسلية وبناءِ العلاقات. وما كان أبعدَ حقيقةِ هذا الأمر عن المسيح! عندما نسأل عن شخص ما، غالبًا ما نسمع شيئًا من هذا القبيل: «أعرفه جيّدًا، هو كذا وكذا...» ويغفل عن بالنا أنَّ الله وحده يعرف أعماق الإنسان الذي خلقه. من المُهمّ جدًّا ألا نُسرع في الأحكام على الخُدَّام والخدمة من ناحية النَّجاح أو الفشل قبل الوقت، وقبل أن تنكشف لنا حقيقة القلوب والنَّوايا، عالمين أنَّ كلَّ شَيءٍ سيظهر أمام عرش المسيح. بالطبع نستطيع أن نقبل أو نرفض بناءً على المؤهّلات والشّروط الرّوحيَّة والأخلاقيَّة التي أوصانا بها الكتاب المقدَّس، لكن علينا ألا نتسرَّع ونحكم على النتائج والثمار قبل الوقت. فقد ظهر بولس لكثيرين على أنَّه رسولٌ فاشل ومهزوم، لم يحظَ على برَكةِ الرَّبّ، بينما كان يختبر هو أعظم الانتصارات في حياته واضعًا أهمَّ المداميك في كنيسة المسيح.

لقد كان الرَّسول بولس مجهولًا، فيما كان هو المختار ليكون الرَّسول النَّموذج والمثال: «فإنّي أرى أنّ الله أبرزنا نحن الرُّسُلَ آخِرين، كأنَّنا محكومٌ علينا بالموت. لأنَّنا صرنا منظرًا للعالم، للملائكة والنّاس» (١كورنثوس ٤: ٩). يتفّق أكثرُ المفسّرين على أنَّ بولس كان مُتَّهَمًا بأنَّه غيرُ صادقٍ في ما يقول وغيرُ موثوقٍ به من جهة أهدافه الخفيَّة. حتى إنَّ التلاميذ الإثنَي عشر خافوا منه في بداءَةِ إيمانه وشكَّكوا في صحَّةِ ادّعاءَاتِه بسبب ماضيه وما فعله باتباع الطريق: «ولمّا جاءَ شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ، وكان الجميعُ يخافونه غير مصدّقين أنَّه تلميذ» (أعمال ٩: ٢٦). حدث ذلك بعد أن انسكب الرّوحُ القدُس على التَّلاميذ وكانوا يجاهرون بالإنجيل بقوّة. ولكن على الرّغم من سُكنى الرّوح القدُس فيهم، إلّا إنّهم لم يستطيعوا أن يصدِّقوا الاختبار الذي حصل عليه شاول الطرسوسيّ. **إنّ حقيقة سُكنى الرّوح القدُس في المؤمنين لا تضمَنُ على الإطلاق صحَّة جميعِ مواقفِهم ومشاعرهم.**

يتصارع الجسد والرّوح كلَّ يومٍ في الإنسان المولود من الرُّوح القدُس ولغاية يوم مماته. فلو أنّ الإنتصار على الجسد وأفكارِهِ يتمُّ مرّةً واحدة، فلماذا إذًا احتمالُ أن يُخطئَ المؤمن بعد الإيمان، وما هو سبب ما قاله الرَّسول برأيكم؟ "بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا" (١كورنثوس ٩: ٢٧). من الأفضل لنا جميعًا في ضَوءِ أن نتواضع ونعترف بمحدوديّتِنا وننتظر مجيء إلهنا الذي وحده سيكشف خفايا القلوب ومكنوناته.

قدّمَ الرَّبُّ يسوع مَثَلَ القمح والزِّوان مُظهرًا فيه عن وجود أناسٍ

مُدَّعين ومُزوِّرين، ومدفوعين من الشَّيطان، يتواجدون بين المؤمنين محاولين التشبُّه بهم. وهو بهذا أرانا قدرة العدوّ على تقليد الحقيقة وتزويرها. لا يسمح الرَّبّ لعبيده بأن يزيلوا الزّوان بأنفسِهم، وبذلك يؤكِّد لنا عدَمَ قدرتنا على التمييز دائمًا وبشكلٍ كاملٍ وقاطع. أحد عشر تلميذًا لم يستطيعوا أن يكتشفوا يهوذا الخائن، حتّى إنَّهم لم يشكّوا فيه يومًا. لذا، عندما يظنّ أحدُنا بأنّه يعرف الآخرين تمام المعرفة ويستطيع التَّمييز في كلِّ تصرّفاتهم ومسلكِهم دائمًا، فهو بذلك يُعرّض نفسه للسُّقوط في خطيَّة الكبرياء وإدانة الآخرين؛ وبالتالي يزجُّ نفسَه في أخذ قرارات وأحكام خاطئة. يقول الكتابُ المقدَّس: "القلب أخدعُ من كلِّ شَيءٍ وهو نجيس، من يعرفه؟" (إرميا ١٧: ٩). هذا يعني أنّ الحُكم على حياة الآخرين بناءً على الثقة بالذّات هو تجاهل متعمَّد لواقع محدوديّة البشر مجتمعين. فإنْ كانَ المسيح نفسُه اللهَ المتجسِّدَ، فقد فشل النّاس بالتعرُّف على هويَّتِه، فكيف لأيِّ مؤمن اليوم أن يدّعي بثقةٍ متجاسرةٍ أنه يستطيع أن يعرف الآخرين معرفة كاملة؟ "التي لم يعلمْها أحدٌ من عظماء هذا الدَّهر، لأن لو عرفوا لما صلبوا رَبَّ المجد" (١كورنثوس ٢: ٨).

محدوديّة معرفة نفوسنا

إنَّ رغبة بولس الدَّائمة في النموّ في معرفة المسيح كانت نتيجة حبِّهِ العميق والصَّادق نحوه، واختبارِهِ الواضح أنَّه بمعزل عنه لم ولن يستطيع أن يدركَ حقيقة نفسِه، إذ هو من أكثر الرُّسُل الذين اختبروا تحوُّلًا كبيرًا وتناقضات عديدة، من مُضطهدِ الكنيسة الأشدّ إلى رسولِها

الأكثر تَعبًا. فكان مِثالًا صارخًا لمَن لم يعلمْ من هو وماذا يريد الله منه قبل لقائه به.

إنَّنا جميعًا كمؤمنين عرضة لخداع قلوبنا قبل جهلنا بحقيقة الآخرين. فالله وحده هو الذي يعرف الإنسان على نحوٍ كامل. لقد اعتبر موسى أنَّه لا يقدر أن يقود شعبَ الرَّبّ عندما دعاه الله من العلَّيقة، كما أنّ جدعون لم يكن يعلم أنّه سيُخلّص شعب إسرائيل فيما التقى ملاكَ الرَّبّ تحت البطمة. أمَّا شمشون الواثق بقوَّته الجسديّة الجبَّارة فسقط وخسِرَ وفقد نظره. لكن أدركته نعمة الله واستخدمته في النّهاية لصناعة أكثر إنجازاته أهميَّة. كما وجد أرميا النَبيُّ أنَّه غيرُ أهلٍ للقيام بالمهمّة التي أوكلها الرَّبُّ إليه قبل أن يصير من أهمِّ أنبياء العهد القديم. هذه الأمثلة، وغيرُها الكثير تغصُّ بها كلمة الله، تُظهرُ لنا أنّنا في معظم الأحيان لا نعرف نفوسنا حَقَّ المعرفة، فيما الله وحده هو من يستطيع أن يُعلن لنا الأمر.

لقد ظنّ بطرس نفسُه أنّه الأقوى بين تلاميذ يسوع، وأنّه من غير الوارد أو الممكن أن يتركَ المسيح أو يخونَه. إلّا أنّ الأمر حصل بخلاف ذلك، إذ تبيّن في وقت الامتحان عكسَ ذلك تمامًا. حتّى إنّنا نراه فيما بعد كما جاء في رسالة غلاطية كيف راءَى خَجَلًا وخوفًا من اليهود، ممَّا اضطرَّ الرَّسول بولس إلى مواجهته في محاولة لإصلاح الأمر.

كانت هذه حالَ الفريسيِّين، رجال الدِّين آنذاك أيضًا. فهم لم يكونوا على معرفة جيدّة بنفوسهم. حتى بولس الرَّسول نفسه لم تكن

لـه معرفـة صحيحـة بمكنونـات قلبه ولا بحقيقة نفسـه قبـل أن يتقابل مع المسـيح علـى طريـق دمشـق. فقـد ظـنّ أنّـه خـادمٌ جيّـدٌ وغيور للـه، لكنَّ المسـيح أعلـن لـه بنـورٍ عظيـم أنَّـه إنَّمـا يعمل ضـدَّ اللـه في الوقـت الذي كان فيـه بـلا لـوم مـن جهّـة النَّامـوس ومبـادرًا فـي دفاعه عـن الله.

كثيـرًا مـا لا يعـرف الإنسـانُ التَّمييـزَ بين الأصدقـاء والأعـداء، بين من يريـدون حقًّـا خيـره ومن يسـتخدموه مـن أجـل مصالحهم الخاصّـة. تقول كلمـة اللـه فـي سـفر الأمثـال: "أمينـة هـي جـروحُ المحِـبّ، وغاشّـة هـي قبـلاتُ العـدوّ" (٢٧: ٦). وهـذا تأكيـدٌ دامغٌ بـأنَّ النّاسَ لا يعرفون أنفسـهم ولا الآخريـن بشـكل كامـل وصحيـح. عبَّـرت صـلاة داود فـي المزمور ١٣٩ عـن هـذه المشـكلة وعـن الحاجـة إلـى الحَـلّ، فقـال: "اختبرنـي يـا اللـه واعـرف قلبـي. امتحنّـي واعـرف أفـكاري. وانظـر إن كان فيّ طريـقٌ باطل، واهدنـي طريقًـا أبديًّـا" (٢٣ و٢٤). هـذه كلمـات تُظهـر حاجـة الإنسـان الملحّـة إلـى فحـصٍ دائـمٍ أمـام اللـه، إذ أنّه عاجز عـن معرفة نفسـه جيّدًا. فقـد يظـنّ أنّـه يسـير فـي الطريـق الصَّحيـح بينمـا يكـون قد أخـذ المنحى الخاطئ.

عندمـا التقـى الـرَّبُّ يسـوع ببولـس، أوقعـه أرضًـا وأفقـده بصَـرَه، فانحنـت هاتـان القدمـان اللّتـان سـارتا فـي الطريـق الخاطـئ، وانطفـأ نور تينِـكَ العينَيـن اللّتيـن أخطأتـا النَّظَـر فـي الأمـور الرّوحيَّـة وتقديرهـا. فما مـن أحـدٍ يسـتطيع أن يـرى الأمـور علـى نحـوٍ حقيقـيٍّ وواضـح ما لـم يُرِهِ الـرَّبُّ ذلـك ويعلـن لـه. توجـد الكثيـر مـن الأمـور التـي يجهلها النّـاس في الحيـاة. ومـع ذلـك، يوجـد دائمًـا أشـخاص يثقون بأنفسـهم كمـا كان أيّوب

الـذي ظـنّ فـي البدايـة أنّ اللـه ظلمَـه بسـبب كلِّ تلـك المآسـي والآلام التـي حلّـت بـه. هـو الـذي عـاد الـرَّبُّ وسـأله مجموعـةً مـن الأسـئلة التي اسـتحال الإجابـةُ عنهـا. وفـي هـذا علَّمـه أن يعتـرف بقلّـة معرفته بنفسـه وبجهلِـهِ لحقيقـة قلبـه. فالإنسـان غيـر قـادر أن يحكـم علـى نفسـه، إذ هو ميّـال إلـى الدّفـاع عنهـا وتبريرها واختلاق الأعـذار. في ضـوء كلِّ ما تقدَّم، حـريٌّ بنـا أن نتـرك الأحـكام للـرَّبّ الـذي وحـده يُعـرّف الإنسـان علـى حقيقتـه. لقـد أقنـع أبشـالوم، ابـنُ الملـك داود، الآخريـن أن يطـاردوا أباه ويحاربـوه. كمـا أنّ تاريـخَ شـعب الرَّبّ أيضًـا يؤكّدُ على جَهلِ هذا الشَّـعب لأنبيائِـهِ وخدّامـه الذيـن أرسـلهم، لذلـك أقدموا علـى احتقارهـم وإذلالهم وتعذيبهـم وقتلهـم: "فَقَـالَ لَهُمْ يَسُـوعُ: لَيْـسَ نَبِـيٌّ بِـلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِـي وَطَنِهِ وَبَيْـنَ أَقْرِبَائِـهِ وَفِـي بَيْتِـهِ" (مرقـس ٦: ٤).

لقـد فهـم الرَّسـول بولـس هـذه الحقيقـة، فتقبَّـل السُّـمعةَ السـيِّئَة والطَّريقـة الفوقيَّـة فـي التّعامـل معـه، حتـى إنَّـه لم يجد شـيئًا فـي ماضيه أو حاضـره يدعـوه للافتخـار إلّا صليـب المسـيح الـذي كرَزَ به وكان سـببَ اعتـزاز له.

قارئـي العزيـز، لا فخـرَ أو كرامـة إلاّ بشـخص المسـيح يسـوع. فلـو لـم يـأتِ هـو بالمؤمنيـن إلى ملكوتـه، فاتحًـا أعينَهـم لمعرفته، لـكان بقيَ الجميـع عميانًـا لا يسـتطيعون إبصار الحَـقّ: "لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِـلَ إِلَيَّ إِنْ لَـمْ يَجْتَذِبْـهُ الآبُ الَّـذِي أَرْسَـلَنِي" (يوحنّا ٦: ٤٤). فلا أحد يسـتطيع أن يرى الحـقّ مـا لم يفتح المسـيح عينيـه، وكذلك مِـن غير الممكـن أن يفهمَ أحدٌ الحـقّ بفضـل اجتهـاده أو ذكائـه مـا لـم يُعلـن له المسـيح ذلـك: "فَقَـالَ لَهُ

يَسُوعُ: طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا إِنَّ لَحْمًا وَدَماً لَمْ يُعْلِنْ لَكَ لَكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (متى ١٦: ١٧).

لقد حاول تلاميذ يسوع صرفَ الجموع عندما وجدوا أنَّهم لا يملكونَ ما يُطعمونَهم إيّاه. كما أنّهم تشاجروا فيما بينهم عن من يكون الأعظم فيهم. هذه أمثلة وغيرها تُظهر لنا كم أساؤوا فهم الأمور الرُّوحيَّة والأبديَّة حتى وهم في غمرَةِ نشاطِ يسوعَ التّعليميّ المباشَر وإرشاداتِهِ لهم.

الأعمال الصَّالحة

امتلأت حياة الرَّسول بولس بالعطاء والأعمال الصَّالحة بدافع المحَبَّة لسيّدِه ومخلِّصه يسوع المسيح. وقد ذاع صيتُ تضحياته واهتمامه باحتياجات الجميع، إذ لم يُهملْ فرصةً حاول فيها مساعدة ودعم من وضعه الرَّبُّ في طريقِه: "وَأَمَّا أَنَا فَبِكُلِّ سُرُورٍ أُنْفِقُ وَأُنْفَقُ لأَجْلِ أَنْفُسِكُمْ" (٢كورنثوس ١٢: ١٥).

إنَّ الرَّبَّ صالح وكثير الرَّحمة. وهو قد أوصانا أن نكون رحَماء كما هو رحيم، واعِدًا كلَّ من يعيش على هذا الأساس ببركات خاصَّة: "طوبى للرُّحَماء فإنَّهم يُرحَمون" (متى ٥: ٧). كثيرة هي الأسباب التي تدفع المؤمن إلى ممارسة الرَّحمة؛ كصفاتِ الله، وطبيعة المسيحيّ الروحيَّة الجديدة، والإيمان العامل، وحاجة النّاس إلى الرَّحمة. لذلك يجب على المؤمنين ألّا يغفلوا عن مساعدة المساكين والفقراء، لأنَّ ذلك هو من جوهر تعاليم الكتاب المقدَّس بكامِلِه: "تُحِبُّ قَرِيبَكَ

كَنَفْسِكَ" (لاويين ١٩: ١٨)، الأمر الذي شدَّد عليه يسوع أيضًا، مبيِّنًا أنّ محبَّتنا لله والقريب هي خلاصة الوصايا والشَّرائع الأدبيَّة في العهد القديم. فالرَّحمة ليست مشاعر تعاطف وشفقة مرتبطة فقط بالإنسان الآخر فحسب، بل هي عمل المحبَّة الصَّادقة للجميع: "فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ. وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ" (رومية ١٢: ٢٠). إنَّ فعل المحبَّة هو أمرٌ يرتبط أوَّلًا بما في الدَّاخل، حيث يجب أن يتطابق مع أحشاء المسيح. وكلُّ من يرغب أن يُظهر فعلَ المحَبَّة العمليَّة، عليه أن يظهرها كما للرَّب وليس للنَّاس فقط. فرسول النّعمة لم يتوانَ يومًا عن إظهار أعمال المحبَّة الصَّالحة في حياته. فالذي رفض بوضوح دورَ الأعمال الصَّالحة في الخلاص، مارَسَ هذه الأعمال كنتيجَةٍ طبيعيَّةٍ لهذا الخلاص.

مارست الكنيسة الأولى منذ تأسيسها أعمال الرَّحمة، وكانت توزِّعُ المَعونةَ على الأرامل والأيتام والمحتاجين بما تيسَّر. فمن بداياتها عَلَّمت أنَّ الإيمان بدون أعمال هو إيمانٌ ميِّت، وأنَّ الأعمال إنّما تُظهر حقيقة الإيمان. لكنَّ الكنيسة التي لا تعي كيفيَّة ممارسة العمل الخيريّ والاجتماعيّ ولا تمتحن دوافعَها وأساليبَها في ضوءِ كلمة الرَّبّ، لن تُقدِّم أكثر من راحةٍ آنيَّةٍ لنفوس ثمينة ذاهبة في طريقها إلى عذابٍ أبديّ. وهذا ما يجعلها تتحوَّل إلى مؤسَّسة اجتماعيَّة تعمل في عالم مُظلم من دون رؤيًا ولا هدف أبديّ. أمّا الرّؤيا المبنيَّة على كلمة الله، فهي ليست مجرَّدَ خطّة مدروسة أو تصوُّرًا واضحًا وضعَه أناس من أصحاب الاختصاص، وإنّما غايتُها وغرَضها أن يكون يسوع المسيح هو الكُلّ وفي الكُلّ من بداية العمل وخلاله، وحتى نهايته: "لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ" (رومية ١١: ٣٦). يسوع وحده هو الذي يجب أن يظهَرَ

عندما نمارس أعمال الرَّحمة؟ "لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي. عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ" (متى ٢٥: ٣٥ و٣٦). هذا ما نجحَ في فعله هذا الرَّسول العظيم، والذي كان ولم يزل مِثالًا لخدمة النّاس، لكن كما للرَّب.

أوَّلًا وأخيرًا

يُصرُّ البعضُ على الإبقاء على خصوصيَّةِ أسلوب خدمتهم للمسيح، متسلِّحين بأنَّهم طالما هم يخدمون بإخلاص وبضمير صالح، فلا أهميَّة لرأي الآخرين. أمَّا رسول النِّعمة، فقد فطن إلى هذا الأمر فيما يمارس مواهبَه ودَورَه كرسول لأنّه كان يعرف حقَّ المعرفة محدوديَّة طبيعته البشريَّة وجسامة مأموريَّته العظمى، فآثرَ الخوف، بمعنى الاحتراس والتهيُّب، كما الانتباه والاذعان لوصايا الرَّب. لذا أوصى كنيسة فيلبّي، وبالتالي جميع الكنائس، بهذا المبدأ الرَّائع: "إِذًا يَا أَحِبَّائِي، كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ، لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ، بَلِ الآنَ بِالأَوْلَى جِدًّا فِي غِيَابِي، تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ" (فيلبّي ٢: ١٢). لم يتجبَّر ولم ينتفخ على الرّغم من كثرة الإعلانات التي حصل عليها حيث أعربَ قائلًا: "ولسنا نجعل عثرَةً في شيءٍ لئلاّ تُلام الخدمة. بل في كلّ شيءٍ نُظهر أنفسنا كخدّام الله..." (٢كورنثوس ٦: ٣ و٤). فهو جعل نفسه خادمًا للرَّبّ أوَّلًا وأخيرًا، من بداية خدمته وحتى آخر يوم في حياته، محافظًا على النَّمَط نفسِه في كلِّ ظروف حياته التي لم تكن سهلة، وأينما حلَّ وارتحل وأمام ثقافات مُختلفة.

إنَّ اهتمام الرَّسول بولس الأوَّل كان معرفة الرَّبّ. فهو لم يُساوم على مهابته وطاعته بحجَّةِ الخدمة. وكانَ هذا تحدّيًا مهمًّا بالنّسبة إليه.

عندما يكون الرَّبُّ هو الأوّلَ والآخِر في حياتنا، لا بدَّ أن تأتي الطاعة تلقائيًّا كنتيجة لذلك.

لم تكن الظروف أو المشاعر أو حاجاتُ الآخرين تُحدِّد مواقف الرَّسول بولس ولا أن ترسمها، بل كان دافعُ محبَّتِه للرَّبّ هو سببَ انطلاقته في كلّ شيء وشروعَه في أيَّة خدمة. عندما تُعاق خدمة الرَّبّ، في أي تفصيل، وبسبب أي أمر، فهذا يُشير إلى أنّ الرَّبَّ لم يكن أوَّلًا وآخِرًا في هذه الخدمة.

فأين مبدأ "لئلّا تُلام الخدمة"؟ لقد اهتمَّ الرَّسول المُتألِّم والمُجاهد بما تعكسه حياتُه الخاصَّة التي يعيشُها عن إنجيلِه. فهو اهتمَّ بجميعِ وصايا الرَّبّ واهتمَّ بتعليم كلِّ مشورته، مُطيعًا إرساليّتَه التي تركها جليَّة لكلِّ خادم: "وعلِّموهم جميع ما أوصيتُكم به."

الفصل

٥

الحيرة

"هناكَ طريقان تخدعانِنا. الأولى هي أن نؤمن بما ليس صحيحًا؛
والثانية هي أن نرفضَ أن نؤمن بما هو صحيح."

سورين كيركيغارد

مـن الكلمـات الغريبـة التـي كتبهـا الرَّسـول بولـس هو مـا جاءَ في رسـالته إلـى كنيسـة غلاطيـة عندما قال لهـم: "وَأَمَّا الآنَ إِذْ عَرَفْتُمُ اللـهَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ عُرِفْتُـمْ مِـنَ اللـهِ، فَكَيْفَ تَرْجِعُونَ أَيْضًـا إِلَى الأَرْكَانِ الضَّعِيفَـةِ الْفَقِيرَةِ الَّتِي تُرِيـدُونَ أَنْ تُسْـتَعْبَدُوا لَهَـا مِـنْ جَدِيـدٍ؟ تَحْفَظُـونَ أَيَّامًـا وَشُـهُورًا وَأَوْقَاتًـا وَسِـنِينَ؟... أَفَقَـدْ صِـرْتُ إِذًا عَـدُوًّا لَكُـمْ لأَنِّـي أَصْدُقُ لَكُـمْ؟... وَلَكِنِّـي كُنْتُ أُرِيـدُ أَنْ أَكُـونَ حَاضِـرًا عِنْدَكُـمُ الآنَ وَأُغَيِّـرَ صَوْتِـي، لأَنِّـي مُتَحَيِّـرٌ فِيكُـمْ!" (غلاطيـة ٤: ٩ -٢٠). مـن المـرَّات القليلـة أو الوحيـدة، إذا صَحَّ التعبيـر، التـي نـرى فيهـا الرَّسـول بولـس فـي حيـرة مـن أمره. بـلا شَـكّ إنّهـا حيرَةُ الألـم والتعجُّـب، وليسـت حيـرَةَ عدم المعرفـة. لكن على الرّغـم من ذلك،

تستحِقُّ هذه الكلمات أن نتأمّلَ بها ونستفيد من دلالاتها.

فالرَّسول هنا مُتحيّرٌ من أمره ولغةُ العاطفة طاغيةٌ في كلامه. يبدو كشخصٍ حائرٍ لا يملكُ حلًّا للمشلكة المطروحة، يتملَّكُه الخوف من أن يكون قد تعب عبثًا: «أخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَكُونَ قَدْ تَعِبْتُ فِيكُمْ عَبَثاً!» (١١). لقد قدّم أيضًا صورة الأمّ التي تتألّم أثناء الولادة، مُشبِّهًا نفسَه بألمِها ومحبَّتِها واهتمامها بشعب هذه الكنيسة الذين ولدهم بعد عناءٍ ومخاض. وممَّا لا شكَّ فيه أنّه بهذا التشبيه أظهرَ مسؤوليَّته التي يحملها تجاههم كمسؤوليَّة الأمِّ تجاه وليدها.

«يا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضًا...» لقد كان الرَّسول بولس بمثابة الأب الرُّوحي لهذه الجماعة، التي كان يعلم بكلِّ أوضاعهم وتجاربهم وماضيهم. وفي ظلّ وجود أخطاءٍ كثيرة كالتي نراها في كنيسة كورنثوس، إلّا أنَّ أهل غلاطية فاقوهم في جعلهم الرَّسول حائرًا. لكن يا تُرى ما هو سببُ حيرَةِ هذا الرَّسول العظيم؟

العودة إلى العبوديَّة

كان أهلُ غلاطية قبل معرفتهم باللهِ الحقيقيِّ وثنيّين ويعبدون آلهة من صنع أيديهم. لكنَّ الذي حصل بعد اختبارهم الخلاص هو أنَّهم سرعان ما عادوا إلى الأركان القديمة لينفضوا الغبارَ عنها ويُوَقِّرونَها من جديد. فكيف لهم وقد أقبلوا إلى المعرفة الجديدة أن يعودوا إلى الجَهل؟ كيف لإنسانٍ بعد أن عرف الإله الحقيقيّ، أن يعود إلى النَّواميس القديمة والطقوس الضَّعيفة التي لا تُخلِّص؟ في ضوء هذه

المشكلة، هناك حقيقة مهمَّة ليتها تبقى في أذهاننا: إنَّ الحُريَّة لا تتجزّأ، فإمّا أن يكون الإنسان حرًّا أو لا يكون. من الطبيعيّ أن يخضع العبدُ لسيِّده، لكن لماذا يخضع الحُرُّ برأيكم؟ هذا ما جعل الرَّسول بولس يتحيّرُ ممّا حصل مع الغلاطيّين. كتب لهم في بداية رسالته: «ولكن إن بشَّرناكم نحن أو ملاكٌ من السَّماء بغير ما بشّرناكم، فليكن أناثيما، كما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضًا: إن كان أحدٌ يبشّرُكم بغير ما قبلتم، فليكن أناثيما» (غلاطية ١: ٨ و٩). لقد سبق للرَّسول أن حذّرهم من قبول أيّة بشارة تختلف عن التي قبلوها في بداية إيمانهم. فالمعرفة للحقيقة وقبولُها تستلزمان التمسُّكَ بها وعدم العودة عنها. فالغلاطيّون قبلوا بشارة الإنجيل التي تقول أن الخلاص بالإيمان وحده وليس بالأعمال، وها هم الآن يحاولون أن يلتزموا بأمور يظنون أنَّها شرط لخلاصهم. لهذا نرى بولس الرَّسول يشكّك في إيمانهم طالبًا منهم أن يمتحنوا أنفسَهم ليتأكّدوا إن كانوا حقًّا في الايمان.

أن نظنَّ أنَّ لنا أيَّ دور، ولو كان صغيرًا، في خلاص نفوسنا هو إهانة للصَّليب. وأن نظنَّ أنَّ لنا أيَّ دور، ولو كان صغيرًا، في إكمال خلاصنا هو إهانة للمسيح. فإن كنَّا نظنُّ أنَّ لنا دورًا في الخلاص يتخطّى الإنجيل حتى ولو كان هذا الدَّور، كما حصل مع أهل غلاطية، هو طاعَةً لنواميس العهد القديم المُقدَّسَة لهو إهانة للصَّليب ولعمل المسيح الخلاصيِّ الكامل. فالمسألة لا تتعلَّق بمضمون الأفعال بل بهدفها. فالنّاموس بكاملِه مُقدَّس باستمرار، وجميعُ وصايا الله طاهرة دائمًا، إنّما لا يوجد وصيَّة واحدة فيه تستطيع أن تُضيفَ شيئًا على عمل الفداء.

لقد كان الرَّسول بولس هو نفسَه من بَشّرهم فعرفوا الرَّبّ وتركوا الأوثان وتحرَّروا منها. لكنَّ حيرة الرَّسول جاءَت نتيجة تراجعهم إلى الوراء بعد أن تجاوبوا مع دعوة الرَّب وذاقوا الإيمان الحقيقيّ المُخلِّص والمُحرِّر. فبعد أن بشَّرَهم وشهد عن إيمانهم، ها هو يحتارُ في أمرهم. أيمكن أن يكونوا قد ارتَدُّوا عن إيمانِهم، أم تخلّوا عن المسيح؟ قد يختبر الإنسان النّعمة المجَّانيَّة في الخلاص ويُصبح بالمسيح بارًّا وحرًّا وقدّيسًا، ومن ثمَّ يكتشف أنَّه لا يعيش وفقًا لهذا الخلاص والنّعمة التي أعطيَت له في المسيح. وفي هذه الحالة فواقعُه باقٍ على حاله، لكن مدركًا وواعيًا لواقعِ عدَمِ عيشِه وفقًا للنّعمة. من غير الممكن أن يفقدَ أحدٌ خلاصه الذي أُعطي له، إن كان قد حصل عليه فعلًا، لكن من الممكن أن يفقد سلامَه وفرحَه وزَخمَه ومحور تركيزه الرّوحيَّين. لم يطلعنا الكتاب المقدَّس عمَّا حصل مع كلِّ واحد من الغلاطيِّين بعد قراءَةِ هذه الرِّسالة. لرُبَّما اتَّعظ بعضٌ منهم، فيما لم يفعل آخرون ذلك مهملين تحذيراتِ ونصائحَ الرَّسول. على الأرجح أنَّ من رجع إلى الوراء منهم هو من لم يختبرِ النّعمَةَ الفعَّالة الحقيقيَّة، إذ جاءَت هذه الرِّسالة حاملة هذا التحدّي لتَكشفَ حقيقة الأمر. لكن ما هو مؤكَّد لنا أنَّ **من عَرَفَ وشَهِد على قوَّة نعمة الله في حياته، من الغرابة أن يستمرّ من دونها.** فلا خلاص إلا بالنِّعمة، إذ من المستحيل أن يحفظ أحدُهم النّاموس كاملًا ويطبّقَه بحذافيره. ولو سلّمنا جدلًا إمكانيَّة ذلك، لا يقدر أن يَخلُص: «لأنّ النّاموس، إذ له ظلُّ الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء، لا يقدر أبدًا بنفس الذَّبائح كلّ سنة، التي يقدّمونها على الدَّوام، أن يكمّل الذين يتقدَّمون» (العبرانيّين ١٠: ١). فالنّاموس هو الظِّلّ وليس الحقيقة، بل

هـو مثـالٌ لهـا. أمّـا الحقيقـة فهـي فـي المسـيح يسـوع وحـده. هذا مـا أكّد عليـه الرَّسـول فـي رسـالته إلـى كنيسـة كولوسـي أيضًـا عندمـا كتـب يقول لهـم: «فـلا يَحكـم عليكـم أحدٌ فـي أكلٍ أو شـرب، أو من جهة عيـدٍ أو هلالٍ أو سـبت، التي هي ظلّ الأمور العتيدة، وأمّا الجسـد فللمسـيح» (كولوسـي ٢: ١٦ و١٧). لقـد صـارع الرَّسـول بولس لأجل هذه الحقيقة، مرسِّـخًا مرَّاتٍ كثيـرة أنّـه يجـب ألا تتحَكَّـمَ أيَّـة مُمارسـات دينيَّـة كانـت أم غيـرَ ذلك، من أيِّ مصـدر جـاءَت، بحُريَّـة المؤمـن فـي المسـيح، لأنَّ كلَّ هـذه هـي ظِـلّ للحقيقـة. فالمسـيحُ وحـده مَـنْ يجب أن يسـودَ على المؤمنيـن لا الطقوس والمناسـبات التـي تتعلَّـق بهـا. في هـذا الفخِّ بالتحديد سـقط أهـلُ غلاطية مـن جديـد بعدمـا عرفوا المسـيح وذاقـوا النِّعمـة الله.

أن يتعـرَّف الإنسـان بالحَـقِّ، ليـس شـرطًا لتقدُّمـه ونمـوِّه فـي حيـاة الإيمـان. مـن الممكـن أن يتعثَّـر فـي المسـيرة أو أن يتراجـع علـى نحـوٍ كبيـرٍ بسـبب التعاليـم غيـر الكتابيَّـة التـي تفضِّـلُ الأفـكارَ البشـريَّة علـى إعـلان كلمـة اللـه. لقـد كشـفت لنـا حيرَةُ الرَّسـول بولـس عن مـدى جديّة هـذا الأمـر وخطورتـه، وفـي الوقـت نفسِـه عن عمـق وصدق تمسُّـكِ هذا الإنسـان بإنجيـل النِّعمـة الـذي أؤْتِمـن عليـه.

المحَبَّة

تكلّـم الرَّسـول عـن محبَّةِ الغلاطيِّيـن الكبيرة التي أظهروها لـه في البداية: «وَتَجْرِبَتِـي الَّتِـي فِـي جَسَـدِي لَـمْ تَـزْدَرُوا بِهَـا وَلاَ كَرِهْتُمُوهَـا، بَـلْ كَمَـلاَكٍ مِـنَ اللـهِ قَبِلْتُمُونِـي، كَالْمَسِـيحِ يَسُـوعَ» (غلاطيـة ٤: ١٤). فهـم اهتمّـوا بـه

وأحبّوه، إلّا أنّ أمرًا غيرَ متوقّع حصلَ قد زعزع تلك المَحبَّة، ها هم يعودون إلى الأركان الضَّعيفة تحت تأثير من المُعلِّمين الكذبة، مُشكِّكين به وبتعاليمه. لذلك كتب يذكّرُهم بمحبّتِهم الكبيرة له وكيف مدحوه وقبلوه كرسول، ولكن يبدو أنّ هناك من سرَقَ بالإضافة إلى حريّتِهم التي في المسيح محبَّتَهم لمن بشَّرهم وخدم بينهم. وهذا برهن لنا أنّ «**القلب الطيِّب» وحده لا يكفي، إن لم يكن مقرونًا بالثبات على التَّعليم الصَّحيح.**

إنّ المحبّة الحقيقيّة تُقاس بالتضحية ومدى الكلفة والبذل والعطاء والاستمرار عند التحدّيات. هذه هي محبَّة الرَّبّ لنا التي لا يجهضُها شَيْء، بما فيه زلّاتُنا وابتعادُنا عنه وعصيانُنا لكلمته ووصاياه أحيانًا كثيرة: «إِنْ كُنَّا غَيْرَ أُمَنَاءَ فَهُوَ يَبْقَى أَمِينًا، لَنْ يَقْدِرَ أَنْ يُنْكِرَ نَفْسَهُ» (٢تيموثاوس ٢: ١٣).

إلاّ أنّ أهل غلاطية تغيّروا بسرعة مُستبدلين محبَّتَهم لبولس بالعداء: «أَفَقَدْ صِرْتُ إِذًا عَدُوًّا لَكُمْ لأَنِّي أَصْدُقُ لَكُمْ؟» (غلاطية ٤: ١٦). فمصارحتُه وتحذيراتُه الصَّادقة لهم جعلتهم يعتبرونه عدوًّا، إذ غالبًا ما يُصَدِّق النّاسُ ما يرغبون في سماعِهِ معرِّضين نفوسَهم للخداع: «لأَنَّهُ سَيَكُونُ وَقْتٌ لاَ يَحْتَمِلُونَ فِيهِ التَّعْلِيمَ الصَّحِيحَ، بَلْ حَسَبَ شَهَوَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ يَجْمَعُونَ لَهُمْ مُعَلِّمِينَ مُسْتَحِكَّةً مَسَامِعُهُمْ» (٢تيموثاوس ٤: ٣). فما نجده جذّابًا ومناسبًا قد يكون خطيرًا ويحتاج إلى فحصٍ خارج نطاق مشاعرنا. فالمعلِّمون الكذبة جاؤوا إليهم بقبُلاتٍ خادعةٍ ليصبحوا الأحبَّاءَ الجُدد. أمَّا الكتاب المقدَّس فيكشفُ لنا حقيقة الأمر، إذ يقول

فـي سـفر الأمثـال: «أمينة هي جـروحُ المُحِبّ، وغاشّـةٌ هي قبُـلات العدوّ» (٢٧: ٦). إنَّ دعـوَةَ الرَّسـول لهـم لم تكن غيرَ صـدًى لمحبَّتِه التى لا تحتمل المُسـايرة أو المجـاراة لهـذا الموضـوع. فهـو طالبهم بشـجاعةٍ بالعودة عن الأفـكار المُدَمِّـرة التـي بـثَّها فيهـم أولئـك المخادعـون: «فَاثْبُتُـوا إِذًا فِـي الْحُرِّيَّـةِ الَّتِـي قَـدْ حَرَّرَنَا الْمَسِـيحُ بِهَا، وَلاَ تَرْتَبِكُـوا أَيْضًا بِنِيـرِ عُبُودِيَّةٍ. هَا أَنَا بُولُـسُ أَقُـولُ لَكُمْ: إِنَّهُ إِنِ اخْتَتَنْتُمْ لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِـيحُ شَـيْئًا!» (غلاطية ٥: ١ و٢). مـاذا تعنـي الكلمات «لا ينفعُكم المسـيحُ شـيئًا»؟ لماذا هـذا التحذيرُ الخطيـر وهـم لـم يرجعوا عـن إيمانِهم بالمسـيح؟ إلّا إنّهم يُشـدِّدون فقط علـى أهميَّـةِ ممارسـة بعـض الوصايا التـي تُعتَبَر مقدَّسـة لإكمـال الخلاص! رأى الرَّسـول بولـس بإرشـاد الرُّوح القـدُس أنَّ المسَّ بكفاية عمل المسـيح للخـلاص ليـس تفصيـلًا ثانويًّـا، بل هو جوهـرُ الإنجيل. لـذا كان واضحًا جدًّا بـأنَّ مَـن يُضيف وصايًا أو شـروطًا للخـلاص لن ينفعَه المسـيح. بكلام آخر، عندمـا تُمَـسُّ الحُريَّـة التـي لنـا فـي المسـيح يُهـان الصَّليـب. **وحيـن تظـنُّ أنَّـك تسـتطيع أن تُضيـف علـى العطيَّة الإلهيَّـة المجَّانيَّة شـيئًا ذا قيمة، قد يكـون هـذا دليـلًا علـى أنَّك لم تسـتقبل هـذه العطيَّـة ولم تتمتّـع بها كما يجـب**. وهـذا مـا جعل الرَّسـول يحتـارُ من سـهولة عودتِهـم إلـى العبوديَّة بعدمـا ذاقوا طعـم الحُريَّة.

مصالح شَخصيَّة

مصالـح شـخصيَّة كثيـرة قد تقـف وراءَ خلافـاتٍ تظهر للنّاس أنّهـا عقائديَّة. لقـد حـذّر الرَّسـول بولـس مـن هـذه أيضًـا إذ كتـب للغلاطيِّيـن مُحـذِّرًا: «يغـارون لكـم ليـس حسـنًا، بـل يريـدون أن يصدّوكـم لكـي تغـاروا لهـم»

(غلاطية ٤: ١٧). هؤلاء ظهروا وكأنَّهم مهتمّين بهم، ولكنَّهم في الحقيقة يريدون إبعادهم عن بولس لجمعهم وراءَهم. فمحَبَّة هؤلاء لم تكن صادقة وموثوقة لأعضاء كنيسة غلاطية، بل تمحورت حول نفوسهم. إنَّ العالم مليْءٌ بالأشرار الذين يُظهرون اهتمامًا بالآخرين بهدف تحقيق مصالحهم الشَّخصيَّة، بحيث تكون الأعمال الصَّالحة رشاوى وغطاءً لرغبةٍ داخليَّة تتجلّى بجمع الأتباع والتسلُّط على حياة النَّاس. ليس كُلُّ عمل صالح أو تعبير مُشجّع ناتجًا من قلب صادق، بل للأسف قد يكون غلافًا جميلًا لنواةٍ مسمومة. إنّ هدف الكثيرين من «صُنَّاع الخير» الذين يختارون الخدمات الاجتماعيّة هو الشُّهرة أو التجارة، أي الرّبح المادّي، أو التسلُّط على النّاس أو تخدير الضَّمير. هذا ما حيّرَ الرَّسول بولس في كيفيّة وقوع أهل غلاطية الذين أحبّوه في حبائل مثل هؤلاء المراوغين، بعدَ أن كانوا مستعدّين للموت من أجله.

لقد وصف يهوذا في رسالته بعضًا من هؤلاء بالقول: "هؤُلاَءِ صُخُورٌ فِي وَلاَئِمِكُمُ الْمَحَبَّةِ، صَانِعِينَ وَلاَئِمَ مَعًا بِلاَ خَوْفٍ، رَاعِينَ أَنْفُسَهُمْ. غُيُومٌ بِلاَ مَاءٍ تَحْمِلُهَا الرِّيَاحُ. أَشْجَارٌ خَرِيفِيَّةٌ بِلاَ ثَمَرٍ مَيِّتَةٌ مُضَاعَفًا، مُقْتَلَعَةٌ." (يهوذا ١٢). يجلسون مع القدِّيسين للطعام ويحبّون الشَّركة والتقرُّب من النَّاس، إلاّ أنَّهم لا ينفعون لشَيءٍ. فالكتاب المقدّس يحذِّر من الأنبياء الكذبة الذين لم يرسلهم الله. وهذا ما يدعو إلى التنبُّه إلى كيفيّة معرفتهم وتحذير النّاس منهم، وخصوصًا أنّ النّاس تستسهل تصديقهم وتتبعُهم وتقبَلُ استغلالهم بسبب حاجتِهم، أو ضعفِهم وقلَّة نضجهم وفقر معرفتهم الكتابيَّة. لقد ظهر هؤلاء كما لو أنّهم يغارون لأجل أهل كنيسة غلاطية، إلاّ أنهم في الحقيقة يغارون من الرَّسول

بولـس. إنّ الغيـرَةَ والتحـزّب خطيّتـان موجودتـان بكثرة في عالـم الخدمة الرُّوحيَّـة. وهنـا لا بـدَّ مـن الإشـارة إلـى حقيقتَيـن واقعيّتَين، فعند الفشـل فـي الخدمـة تكثُـر الشَّـماته، وعند النَّجـاح تكثُـر الغيرَة.

لقـد احتـار الرَّسـول بولـس وتألّم جدًّا، لـذا رغب بتذكيـر أهل غلاطية الذيـن أحبَّهـم بصـدق وشـفافية، وتنبيهِهـم بـأنّ ثمَّة أناسًـا يقومـون بأمور ملتويـة هدفهـا إبعادهـم عن الحَقّ وعنه كرسـول للمسـيح.

مشاعر مقدَّسة

لقـد تمنّـى بولـس على الغلاطيِّيـن أيضًـا أن يدركوا مشـاعره وعواطفه من نحوهـم، فقـال لهـم: "يـا أولادي الذيـن أتمخَّـضُ بكـم أيضًا إلـى أن يتصوّر المسـيح فيكـم" (غلاطيـة: ٤: ١٩)، معربًا هنا عن مشـاعر الأبـوَّة. فهو الذي بشَّـرَهم بمخـاضٍ ليولـدوا ولادَةً روحيّة، وغايته من ذلك أن يرى المسـيح يتصـوّر فيهـم. وكأبٍ يحمـل مشـاعر الحنـان، لكنَّـه يـرى أولاده يزيغـون، اعتَرَتـه الحيـرَةُ فـي كيفيَّـةِ التصـرُّف معهـم، أبِشِـدَّةٍ وقسـاوَة أم بلطـفٍ ولِيـن؟! وقـد عبَّـر عـن ذلـك بقولـه: "ولكنّـي كنـت أريـد أن أكـون حاضرًا عندكـم الآن وأُغيِّـرَ صوتـي، لأنّي متحيّـرٌ فيكم" (٢٠). فشـهوَةُ قلبه في أن يُصبحـوا علـى شـبه المسـيح، علمًـا أن ذلك لا يصـبُّ في مصلحتـه الخاصّة كمـا فعـل الذيـن خدعوهـم. مـا أصعـبَ حيـاةَ الخـادم الصَّـادق الحقيقـيّ الـذي يهتـمُّ بنمـوِّ شـعب الله وقداسـتهم، على الرّغـم ممّا يحمـل ذلك من صعوبـاتٍ وتحدّيـاتٍ ومقاومـات ليسـت قليلة.

مـن المهـمّ معرفـةُ كلام الـرَّبّ الحقيقـيّ وتمييـزُه مـن خـلال إدراك

خـدَّام الـرَّبّ الحقيقيّيـن، خصوصًـا عندمـا نتنبَّـه إلـى مـا ذكـره الرَّسـول فـي رسـالته إلـى أهـل كورنثـوس: "لأَنَّ مِثْـلَ هَـؤُلاَءِ هُـمْ رُسُـلٌ كَذَبَـةٌ، فَعَلَـةٌ مَاكِـرُونَ، مُغَيِّـرُونَ شَـكْلَهُمْ إِلَـى شِـبْهِ رُسُـلِ الْمَسِـيحِ. وَلاَ عَجَبَ. لأَنَّ الشَّـيْطَانَ نَفْسَـهُ يُغَيِّـرُ شَـكْلَهُ إِلَـى شِـبْهِ مَـلاَكِ نُـورٍ! فَلَيْـسَ عَظِيمًـا إِنْ كَانَ خُدَّامُـهُ أَيْضًـا يُغَيِّـرُونَ شَـكْلَهُمْ كَخُـدَّامٍ لِلْبِـرِّ. الَّذِيـنَ نِهَايَتُهُـمْ تَكُونُ حَسَـبَ أَعْمَالِهِـمْ" (٢كورنثـوس ١١: ١٣ -١٥). إنّ الخـادم الحقيقـيّ لا يعمل لإرضاءِ النّـاس ولا لإرضـاء مشـاريعِه الخاصّـة وطموحاتـه الشـخصيَّة، إنمـا يعمـل فقـط لإرضـاءِ مَـن جنَّـدَه وأوكلَـه علـى تعليـم ونَقـلِ كُلِّ مشـورَةِ اللـه.

الفصل

٩

إختبار ميليتُس

"الإيمان الثابت بسيادَةِ الله الكاملة، هو الحَلُّ لكُلِّ المشاكل."

ب. ب. وارفيلد

وصل بولس الرَّسول إلى ميليتُس. وهي منطقة قريبة من مدينة أفسس. هناك طلب من رعاة كنائس أفسس أن يلتقوا به لكي يكلّمَهم. كان كلامه الوداعيُّ مؤثِّرًا جدًّا "وَالآنَ أَسْتَوْدِعُكُمْ يَا إِخْوَتِي لِلَّهِ وَلِكَلِمَةِ نِعْمَتِهِ الْقَادِرَةِ أَنْ تَبْنِيَكُمْ وَتُعْطِيَكُمْ مِيرَاثًا مَعَ جَمِيعِ الْمُقَدَّسِينَ" (أعمال ٢٠: ٣٢). لقد مَرَّ الرَّسول بصعوباتٍ كثيرة في حياته وخلال خدمته، لكنَّ اختبارَه في ميليتس هو من أكثر الاختبارات عاطفيَّة. أراد أن يودِّعَ كنيسة أفسس التي أحبَّها بشكل خاصّ محَبَّةً شديدَةً وصادقة. كان اللقاءُ صعبًا لأنَّ الوداع سيكون نهائيًّا: "والآن ها أنا أعلم انَّكم لا ترون وجهي أيضًا، أنتم جميعًا الذين مررت بينكم كارزًا بملكوت الله" (أعمال ٢٠:

٢٥). فهو سبق أن خدم بينهم ثلاث سنين مليئَةً بالتّحديات والصّعوبات. وهذه تُعتبَر مدَّة طويلة نسبيًّا قضاها الرَّسول في مكانٍ واحدٍ يُبشِّر ويُعلِّم. من أجل ذلك، كان لكنيسة أفسس مكانة خاصة لديه، فقد تعلَّق قلبُه بهم. تكلَّمَ عن هذا الموضوع وقال: "أنتم تعلمون من أوّل يومٍ دخلتُ آسيّا، كيف كنت معكم كلَّ الزَّمان. أخدم الرَّبّ بكلّ تواضع ودموع كثيرة، وبتجارب أصابتني بمكايد اليهود. كيف لم أؤخِّرْ شيئًا من الفوائد إلّا وأخبرتكم وعلّمتُكم بها جهرًا وفي كلِّ بيت" (أعمال ٢٠: ١٨ -٢٠). عانى الرَّسول معهم، لكنَّه انتصر أيضًا معهم، في كنف علاقةٍ وثيقة جدًّا بهم. لقد كانوا بمثابةِ مجموعاتٍ صغيرة، بحيث كان يذهب من بيتٍ إلى آخر لكي يجتمعَ بهم ويكلِّمُهم معزِّيًا، وبانيًا ومقوِّمًا وناصحًا. وها هو الآن يودِّعهم عالمًا، بحسب ما أعلن له الرَّبّ، أنّ أمورًا صعبة تنتظرهم بعد ذهابه: "لأنّي أعلم هذا: أنَّه بعد ذهابي سيدخلُ بينكم ذئابٌ خاطفة لا تُشفقُ على الرَّعيَّة "(أعمال ٢٠: ٢٩). ففي الوقت الذي كان بولس يستعدُّ لوداع هذه الكنيسة، كان في الوقتِ نفسِه يدرك تمام الإدراك أنَّهم سيواجهون خطرًا كبيرًا. وهذا ما جعل الوداع أكثرَ صعوبةً وعاطفيَّة: "وكان بكاءٌ عظيم من الجميع، ووقعوا على عنق بولس يقبِّلونه متوجّعين، ولا سيَّما من الكلمة التي قالها: إنَّهم لن يروا وجهَه أيضًا. ثمَّ شيَّعوه إلى السَّفينة. (أعمال ٢٠: ٣٧ و٣٨). إنّ اختبار ميليتُس أظهر عاطفة وإحساسَ هذا الرَّسول الذي اتُّهم زورًا وبطلانًا بالقسوة والخشونة بسبب مواقفِهِ الثابتة والشُّجاعة في مواجهة المقاومين والمُبتدعين على حَدٍّ سواء.

الذئاب الخاطفة

عَلِمَ بولس بضعفاتِ كنيسة أفسس والخطرِ المُحدق بها، إذ علِم بمجيْءِ ذئابٍ لن تُشفق على الرَّعيّة. فعلى الرّغم من عِلمِه بالخطر القادم، وأنّ وداعَه سيكون الأخير، نراه يستودعُهم لله بكلِّ ثقة. **من الصَّعب تسليمُ الأمور بالكامل للرَّبّ عندما نعلم أنَّ ما سيحدث في المستقبل لا يعكس ما نتمنّاه.** لم يُصرَّ الرَّسول على بقائه، لكي يتابع خدمته ورعايته لهم، بل قَبِل مشيئة الله الصَّعبة وسلّمَهم لتلك المشيئة الصَّالحة واستودعهم بين يدَي من لا ينعس ولا ينام. فأن يتخلّى الرَّسول عن تعبِ سنواتٍ في الخدمة والجهاد مسلِّمًا أحبّاءَه الذين لن يراهم ثانية بالكليّة للرَّبّ لأمرٌ في منتهى الصُّعوبة. ليس سهلًا أن يرحل المؤمن تاركًا مَن أحبَّهم وتعلَّق بهم بين يدَي الله! ومع معاناة ذلك الفراق كان بولس في الوقت نفسِه مطَمئِنًا ومسلِّمًا، ذلك لأنّه استودعهم لنعمة الله القادرة على كلّ شيء. فعلى الرّغم من الألم لم يختبر اليأس، وعلى الرّغم من الخطر لم يفقُد السَّلام إذ كان يُدرك ما معنى أن تكون الكنيسة تحت سلطان الله القدير ورعايته. آمنَ بولس أنَّ نعمة الله قادرة أن تحفظ هذه الكنيسة، وأنَّ حكمة الله المُطلقة وسيادته الكاملة ستسمحان باستمرار الصّعوبات والحرب الرُّوحيَّة لأهداف ليست دائمًا واضحة لنا. لقد أظهر هذا الإختبار كم كان الرَّسول بولس مِثالًا للخادم الذي تعلَّقَ بسيِّدِهِ وآثر طاعته أكثر ممَّا تعلَّق بالخدمة نفسِها. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أمرٍ شائع يحصل مع بعض الخدَّام، وتحديدًا المُخلصين منهم، إذ لا ينجحون بتسليم مشعل الخدمة براحةٍ وسلاسةٍ لآخرين، حتى وهم في نهاية خدمتِهم، الأمر الذي انتبه إليه الرَّسول

بولس، فنجحَ بتسليم خدمتِه ومَن خدم بينهم إلى نعمة الله والرَّحيل، على الرّغم من إعلان الرَّبّ له عن الخطر القادم. **قد يجاهد المؤمن الغيور، دون أن يدري، ضِدَّ مشيئَةِ الله عندما لا يُسلِّم لها**. ما من أحدٍ يُحبُّ خراف المسيح، أو يخاف عليها، أو يقدر أن يحفظها أكثر من الرَّاعي الصَّالح. وبناءً على هذه الحقيقة الأكيدة، وجب على كُلّ خادم أن يحرص على رعاية شعبِ الرَّبّ بسهرٍ ويقظة تحت إشراف راعي الرُّعاة. لكن عندما يحين وقتُ الرَّحيل عليه أن يحرص أيضًا أن يثقَ بالله وحكمتِهِ أكثر من الثّقةِ بنفسه.

إنَّ الله هو من بدأ العملَ أوَّلًا في قلوب الأفسسيّين، وهو من جاء ببولس إليهم، وهو من اهتمّ بهم من خلاله. فالأمر إذًا يتعلّق بشكل كامل بالله، وليس لأحدٍ فضلٌ أو يَدٌ في هذا الأمر. وفي هذا السّياق شرح بولس الموضوع في رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس التي كانت تعاني من الإنقسامات والتحَزُّب: "فَمَنْ هُوَ بُولُسُ وَمَنْ هُوَ أَبُلُّوسُ؟ بَلْ خَادِمَانِ آمَنْتُمْ بِوَاسِطَتِهِمَا وَكَمَا أَعْطَى الرَّبُّ لِكُلِّ وَاحِدٍ: أَنَا غَرَسْتُ وَأَبُلُّوسُ سَقَى لَكِنَّ اللهَ كَانَ يُنْمِي" (٣: ٥ و٦).

كان الرَّسول على عِلمٍ ليس فقط بالذِّئاب الخاطفة القادمة إلى الكنيسة من الخارج، بل بما سيحدُث في الدَّاخل: "وَمِنْكُمْ أَنْتُمْ سَيَقُومُ رِجَالٌ يَتَكَلَّمُونَ بِأُمُورٍ مُلْتَوِيَةٍ لِيَجْتَذِبُوا التَّلاَمِيذَ وَرَاءَهُمْ" (أعمال ٢٠: ٣٠). أمَّا الحَلُّ الذي قدَّمه لمواجهة هؤلاء الأعداء والأنبياء الكذبة، فكان بالتَّسليم لله وتقديم مِثالٍ صالحٍ يبقى تأثيرُه حاضرًا وفاعلًا حتى بعد غيابه: "لِذَلِكَ اسْهَرُوا مُتَذَكِّرِينَ أَنِّي ثَلاَثَ سِنِينَ لَيْلاً وَنَهَاراً لَمْ أَفْتُرْ

عَـنْ أَنْ أُنْـذِرَ بِدُمُـوعٍ كُلَّ وَاحِـدٍ" (أعمـال ٢٠: ٣١).

التَّسليم لله ولنعمتِه

لقـد كان بولـس خيـرَ مثـالٍ فـي التَّسـليم لمشـيئةِ الـرَّبّ، إذ سـلّم حياتـه وكلَّ مـا لـه لتلـك المشـيئة التـي طالمـا اعتبرهـا صالحـة. فالله هـو الأبُ الحنـون الـذي يهتـمُّ بـأولاده ولا يتخلّـى عنهـم. هـذا مـا أخبرنـا به يسـوع نفسُـه بقوله: "لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى" (يوحنّا ١٤: ١٨). أمَّا الخبرُ السّـار، فهو أنَّ اللـه لـن يغيّـر فكـره، ومـن المسـتحيل أن تتقلّـص محبّتُـه لأولاده، كما لن يسـتطيع أحـدٌ أو أيُّ ظـرف مهمـا كان قاسـيًا أن يُضعـف مـن عزيمتِـه مـن نحـو أحبّائِـه، ذلـك لأنّـه هو الـرَّبّ. لقد فهم بولـس في ميليتُـس أنَّه يوجد آبٌ سـماويٌّ أكثـرُ قـوّةً وحنانًـا وحِكمـةً منـه، ولهذا سـهُلَ عليه أن يسـلّمه كُلّ أمـوره. إنّ أبانـا الـذي فـي السَّـماوات هـو نفسـه الـذي يديرُ دفّـةَ هذا الكـون ومـا مـن أمـرٍ يحـدث إلاّ بأمـره أو بعلمِه.

قـام أبشـالوم فـي العهـد القديم بأمورٍ سـيِّئَةٍ ضِـدَّ والده الملـك داود. ولكـن يدهشـنا في المقابل كيـف أنَّ داود خافَ عليـه وطلب من محاربيه أن يُراعـوه فـي الحـرب لكـي لا يُصيبَـه أيُّ مكـروه. وهـذه صـورةٌ تعكـس فعـلًا محبَّـةَ الأب، وقلبَـه النابض بالرّأفـة والحنان.

لقـد اسـتودع بولس شـيوخَ وأعضاءَ كنيسـة أفسـس لكلمـة نعمة الله. غالبًـا مـا لا تأخـذ النِّعمـة حقّهـا في بعـض الكنائـس، إذ لا يتمّ الـكلام عنها بشـكل واف. والحقيقـة هـي أنَّ اللـه هو الـذي يُنعمُ على البشـر العاجزين والضّعفـاء، وهـو يعمـل في حياتِهـم بقوَّته. **فالأمـرُ لا يقتصرُ على سـماعِنا**

عـن النّعمـة وقبولِهـا كونَهـا عطيَّـة من اللـه، بـل أن نختبرها عمليًّـا كونَها مصـدر قـوَّة. فعندمـا يُظهر الـرَّبُّ محبّتَه لكنيسـته من خـلال غفرانه، نرى أيضًـا نعمتـه من خـلال معاملاته المُسـتمرَّة معها. ومن دون هـذه النّعمة، لا يمكن للكنيسـة إطلاقًا أن تسـتمرَّ لتُكمل مسـيرَتَها وخدمتها للمسـيح.

إنَّ بولـس لـم يسـلّم أعضـاءَ كنيسـة أفسـس للقساوسـة والشّـيوخ، بل لكلمـة نعمـة اللـه التـي مـن دونهـا لا يُمكـن أن ينجحـوا أو يتقدّمـوا فـي حياتهـم الرُّوحيَّـة. ليـس مـن السُّـهولة علـى الإنسـان أن يسـلِّم، فكيف إذا طُلـب منـه أن يسـلِّمَ مـا يُحبُّـه أو ما تعلَّـق بـه! إنَّ الطبيعة البشَـريَّة، حتى لـدى أولاد اللـه، تسـتصعب التسـليم. فالنّـاس يتمسّـكون بمـا يحبّونـه أو يفضّلونـه ظنًّـا منهـم أنّـه الأفضـل، فيمـا يتناسـى المؤمنـون أحيانًـا كثيـرة أن لا شـيءَ يسـتطيع أن يفصـل المؤمـن عـن محبَّـةِ المسـيح. إذّاك يهـون التسـليمُ ويتلاشـى الخـوف والهلـع.

أساسٌ راسخ

سـوف تُمتَحَـن أعمـالُ كلِّ إنسـان مؤمـن وخدمتُـه، وذلـك بحسـب كلمـة الـرَّب. وهـذا يتضمَّـن أيضًـا مشـاعر ونوايـا كُلّ خـادم للـرَّبّ. وقـد نتفاجـأ بـأنَّ أعمـالًا صالحـة كثيرة وخدمـاتٍ متنوعَةً ربّما لا تحظـى بتقدير ورضى الـرَّبّ. فالله لا يحكـم بحسـب المظاهـر أو وفقًـا للنتائـج، بـل ينظـر إلـى القلـوب ويفحـص النَّوايـا. حـذَّرَ الرَّسـول مـن هذا الأمـر عندما كتـبَ قائلاً: "فإنَّـه لا يسـتطيع أحـدٌ أن يضـع أساسًـا آخـرَ غيـر الـذي وُضـع، الـذي هـو يسـوع المسـيح. ولكـن إن كان أحـدٌ يبنـي على هذا الأسـاس: ذهبًـا، فضَّـةً،

حجارة كريمة، خشبًا، عشبًا، قشًّا، فعملُ كلِّ واحدٍ سيصير ظاهرًا لأنّ اليومَ سيبيّنُه. لأنَّه بنار يُستعلن، وستمتحن النّار عمل كلّ واحدٍ ما هو" (١كورنثوس ٣: ١١ -١٣).

هنالك أنواعٌ متعدّدة من موادّ البناء، منها ما سوفَ يحترق، إذ لا يصمد أمام النيران، ومنها ما سوفَ يصمد بل سيزدادُ لمعانًا تحت ألسنةِ لهَبِ التمحيص. هذا يعني أنَّ إمكانيَّةَ بناء أمور غير نافعة روحيًّا أمرٌ وارد، وإن كانت بالشَّكل كذلك. أمَّا إذا فحصنا ما بناه الرَّسول بولس في ميليتُس، فسوفَ نجد أنّه صمد حتى أمام الذّئاب الخاطفة، ذلك لأنّه بُنيَ على أساسٍ راسخ وصحيح ومتين، إذ لم يكن مشروعًا شخصيًّا، بل ينضوي تحت خطّة الله ومشروعِه. لقد سَلَّم بسهولة لأنَّه أدرك تمامَ الإدراك أنَّ المشروع هو مشروع الرَّبّ من البداية وإلى النّهاية، وأنّه ليسَ غيرَ عبدٍ يفعل ما كان يجب أن يفعله. فهو كان يبني وفي فكره أنّه متى جاءَ الوقت سوف يُسَلِّمُه واثقًا ومستريحًا. **سؤالان جدِّيّان يجب أن يرافقا كُلَّ خادمٍ للمسيح: لمَن تبني؟ وكيف تبني؟**

إنَّ عملَ الخدمة، أيَّة خدمة، هو عملُ بناء، ويجب أن يكون على أساس النّعمة وليس على أساس القدرة أو المعرفة أو الموهبة البشريَّة. لذلك، فإنَّ النَّمَط والنَّموذج اللذَين وضعهما الرَّبُّ يجب أن يُتَّبَعا، وليس ما نرتئيه نحن. من هذا المنطلق يمكنُنا تحديدُ صلاتنا ودورها الفاعل، إذ إنَّ الصَّلاة الصَّحيحة لا تطلب البرَكَة فقط، بل المشورة أيضًا. إنّها الصَّلاة الخالية من الأمر والغنيَّة بالسُّؤال. تلك الصَّلاة التي لا تحاول أن تفرض على الرَّبِّ أمرًا، بل تسعى إلى معرفة فكره والتسلّح بقوَّتِه.

هـي الصَّـلاة التـي يجـب أن تعكـس واقعنا الـذي يتمثَّـل بأنَّنا نحـن الخُدَّام والله هو السَـيِّد.

إنّ كلمـة الـرَّبّ وحدهـا هـي التـي تبنـي الذَّهـب والفضَّـة والحجـارة الكريمـة، أمَّـا كلام العِلـم والمنطـق إنّمـا يجمـع القَـشّ والعشـب. وهـذا مـا يجعـل جميـع الطقـوس والفرائـض الدِّينيَّـة ضعيفـة جـدًّا وعاجـزة عن تقديـس النَّفـس أو إكـرام الله لأنَّها أعمـالٌ من صنع البشـر وترتيبهم بغَضّ النَّظـر عـن شـكلها. أمَّـا قيمـة طقـوس وفرائـض العهـد القديـم فـي أيَّـام شـعب اللـه، لكونِهـا كانـت تُشـير وتشـهد عـن المسـيح. إنَّ كلَّ مـا يعملُـه اللـه هـو أفضـل وأقـوى بكثيـر ممَّـا يحـاول أن يعملَه الإنسـان. وبنـاءً على هـذه الحقيقـة علينـا الاعتمـاد علـى نعمـة الله لا علـى ذواتنـا ومجهوداتنا البشَـريَّة. إنَّ الـكلام عـن النِّعمـة لا يكفـي، والسّـماع عنها فقط لـن يجديَنا نفعًـا، إنَّمـا مـا يجعلهـا فاعلـة ومثمـرة فـي حياتنـا هـو أن نعيشـها وننمـو مـن خلالهـا. **فنعمـة الله تقتل "الأنا" وتسـتبدل بها الرَّبَّ يسـوع المسـيح.** عندمـا يحـاول الإنسـان أن يعتمـدَ على ذاته بـدل الاعتماد علـى نعمة الله يُسـيْءُ للعمـل ويُضعـفُ البنـاء ويخسـر المكافـأة. ولـو نظرنـا إلـى خدمـة بولـس هـذا الرَّجُـل الطَّرسوسـيّ لوجدنـا مـن دون أدنـى شَـكٍّ أسـاسَ اللـه الرَّاسـخ فـي مسـيرته. لذلـك وبـكلِّ أمانـة اسـتطاع أن يقول بحَـقٍّ: "بنعمة اللـه أنا مـا أنـا" (١كورنثـوس ١٥: ١٠).

صلاة يسوع

مـن أيـن برأيكم أتى بولس الرَّسـول بالثّقـة واليقين بأنَّ الله سـوف يحفظ

كنيسة أفسس من البدَع والضّلالات بعد غيابه؟ أكان واثقًا بإيمانِهم وبثباتِهم وإرادتهم الصَّلبة؟ بالطبع لا، لأنَّ معظم مَن خدمهم بولس وغيرُه من الرُّسل أظهروا الضَّعف والشَكّ وسرعة التيَهان. لكنَّ اليقين الذي أراح الرَّسول هو بالحقيقة فهمُه لطبيعة عمل الله الخلاصيّ.

لقد رفع يسوعُ صلاةً إلى الآب مفصحًا من خلالها أنّه صاحب المُخطّط وأنّه هو من بادر واجتذبنا إليه: "أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كلاَمَكَ" (يوحنا ١٧: ١٦). تؤكّد لنا هذه الكلمات أنَّ الله الآب هو الذي يَملُك منذ البداية وهو صاحب المبادرة، وصاحب القرار في مجيئِنا إليه، ذلك **لأنَّ المؤمنين هم عطيَّة الآب للابن**. كان الله هو المبادر في العمل، وهو يحرِّك المشاعر والإرادات، كما أنَّ اختبار الخلاص الذي ناله المؤمنون ليس إلا نتائج ومفاعيل هذا الأمر: "أَنَّ الْكلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي" (يوحنّا ١٧: ٨). فالنّعمة التي تُجدِّد وتُخلِّص تجلب معها التوبة والإيمان: "أَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ" (أفسس ٢: ٨). لقد أظهر يسوع في يوحنّا ١٧: ٨، أنَّ مشروع الخلاص إنّما يخصُّ الآب والابن معًا ولا سواهما. لكن، ما دام الأمر كذلك، فما هو دور الرَّسول إذًا؟ إنَّه محصور في نقل الرِّسالة بكلِّ أمانة، أمَّا دور المستمعين، فمحصور في قبولها.

من المستحيل بأيِّ شكلٍ من الأشكال أن يُبطَلَ مشروعُ الله الفدائيّ والكفّاري أو يفشل أو يُعاق، إذ إنَّ المسيح نجح فيما جاءَ

ليقوم به. وهذا الحوار المدوَّن في إنجيل يوحنّا بين الآب والإبن، إنّما يؤكِّد المؤكَّدَ بأنَّ من هُم للمسيح سوفَ يبقونَ له، إذ هم محفوظون في يده، ومحروسون بقوَّه الله اللّامحدودة: "أَنْتُمُ الَّذِينَ بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ" (١بطرس ١: ٥)، فالمؤمنون هم عطيَّة الآب للإبن، وما من قوَّةٍ في الوجود تستطيع أن تغيِّرَ هذه الحقيقة.

يُكمل المسيح كلامَه في يوحنَّا الأصحاح ١٧ بقوله: "مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ" (يوحنّا ١٧: ٩). وفي العدد ١١ يطلب من الآب أن يحفظ المؤمنين في اسمه. هذه الطِلبة مُخصَّصة فقط لجماعة محدَّدة ألا وهي: "الّذين أعطيتَني." فمن يُدرك طبيعة هذا العمل الخلاصيّ وجوهر الفداء وما يجري من وراء السِّتار، يستطيع أن يطمئِنَّ على نتائج عمل نعمة الله، كما فعل الرَّسول بولس. هذا وقد طلب المسيح من الآب أيضًا أن يبقى المؤمنون في العالم وأن يقدّسهم الآب في حقّه. كذلك، فالتقديس أيضًا هو عملٌ إلهيّ وليس للإنسان يَدٌ في هذا الأمر. قال يسوع في إنجيل يوحنّا أيضًا، والأصحاح ٧ كلمات رائعة تبعث الرَّجاء في قلوب أولاد الله: "أيُّها الآب أريد أنَّ هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنَّك أحببتني قبل إنشاء العالم" (٢٤). وهنا التأكيد في نهاية المطاف أنَّ من يقبل المسيح ويتبرَّر بنعمته سيكون معه في المجد، إذ أنّ الآب لن يرفض مثل هذا الطلب من الإبن.

وبما أنّ بولس كان متيقِّنًا أنَّ الأمر كلّه في يدِ الله وتحت سيادته،

فقدِ استودعَ الذينَ بشَّرَهم وأحبَّهم لنعمَةِ الله القادر أن يُحقِّق وعده بحفظهم إلى ذلك اليوم الأخير. إنَّ الله أقسم وشاءَ وتعهَّد بأن يخلِّص شعبًا له: "وعرّفتُهم اسمك وسأعرِّفُهم، ليكون فيهم الحُبُّ الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم" (يوحنّا ١٧: ٢٦). وكما بالخليقة هكذا بالخلاص تظهر قوَّةُ الله وسلطانُه المطلق من خلال تحقيق إرادته الصَّالحة مع شعبه. إنَّ التَّسليم لله هو أفضلُ خطوةٍ وأحسن قرار وأنفع مسار، إذ ما نراه اليوم بعيون الإيمان سنبصِرُه غدًا بالعيان.

لا يهتمّ بعضٌ من المؤمنين كثيرًا بالعقيدة التي تضع أساسًا راسخًا لمفاهيم مهمَّة وضروريَّة في مسيرة الإيمان، بل يركِّزون فقط على نقل البشارة السَارَّة، غير آبهين بالتّعليم ولا بإرساءِ أساسٍ ثابت في حياة مَن بشّروهم. **إنَّ الإهتمام بالعقيدة هو اهتمام كبير بفكر الله والتعرُّف به**. كما أنَّ التعليم هو أمرٌ أساسيٌّ لحياة التقوى. فأساسُ العقيدة مبنيٌّ على فهم خطة الله وكيفيَّة عملِه. مثال على ذلك هو محاولات التَّقوى الخارجيَّة المبنيَّة على مجهودات البشَر وتَناقُضِها مع التعليم الصَّحيح، بحيث تنعكس سلبًا على أمور عمليَّة وسلوكيَّة. والنَّتيجة تكون أن **لا تقوى حقيقيَّة من دون عقيدة سليمة**.

هذا لا يعني أنّه لا يوجد أيَّة مطالب من الله للإنسان، وهذا لا ينفي أيضًا حريَّة الإنسان في القرار أو الاختيار. لكنَّ الفرقَ يكمُنُ في إدراك وفهم ما يحصل قبل عمل الإنسان الظاهريّ، ألا وهو أنَّ الله يعمل لتحريره من العبوديَّة بناءً على قصده ومشيئَتِه ليستطيع أن يتبع الوصيَّة ويطيعَها بحريَّةٍ وإرادة.

فالعملُ هو عملُ الله من البداية وإلى النِّهاية، والخطيّة هي خطيّة الإنسان منذ سقوطِهِ في جنَّة عدن. وعليه يجب على المؤمن أن يُبقيَ ناظرَيه على المسيح من البداية وحتى النّهاية لأنَّه هو رئيس الإيمان وأيضًا مُكمِّله. وباختصار نستطيع أن نقول أنَّ اختبار الرَّسول في ميليتُس كان اختبارَ ألم الوداع، مقرونًا بروعَةِ التَّسليم.

الفصل

١٠

الطرسوسيُّ والصَّليب

"لا يُساهمُ الإنسانُ في شيءٍ بالنّسبةِ إلى خلاصِه ما عدا الخطيَّة التي جعلت هذا الخلاصَ ضروريًّا."

جوناثان إدواردز

كان الصَّليبُ شعارَ الرَّسول بولس الدَّائم. ففي رسالته إلى أهل غلاطية كتب يقول: "وأمّا من جهتي فحاشا لي أن أفتخر إلاّ بصليب ربِّنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم" (٦: ١٤). هذه الكلمات لا تعكس مشاعرَ روحيَّةً سامية فقط، وإنّما عمقَ إدراكِ معاني الصَّليب وأبعادَه. لم يجد شيئًا يفتخر به هذا الرَّسول المُختار، كثير المواهب والنَّشيط، إلاّ صليب يسوع المسيح.

رُبَّما يظنَّ البعض أنَّ معاناتَه وآلامَه وصبره كانت ضمنًا سببًا للافتخار ولو حتى لم يُظهر ذلك بشكلٍ صريح. **ففي عمق الطبيعة**

البشريَّة السَّاقطة كبرياء دفينة وجائعة باستمرار تقود إلى البحث الدائم عمّا يُشبعها. إنّ إساءَةَ فهم الصَّليب تؤدّي إلى تشويش في الرُّؤية وضعف في التمييز، بينما حملُ الصَّليب وفهمُه الصَّحيح هما من سماتِ أتباع المسيح وتلاميذه الأقربين.

الانتماء

على الرّغم من امتيازات الرَّسول بولس كيهوديٍّ من نسل إبراهيم، إلّا أنَّه لم يفتخر إلّا بانتمائِهِ إلى الصَّليب: "مع أنَّ لي أن أتَّكلَ على الجسد أيضًا. إن ظنَّ واحدٌ آخر أن يتّكلَ على الجسد فأنا بالأولى" (فيلبّي ٣: ٤). فهو لم يفقد تركيزَه الرُّوحيَّ متلهِّيًا بهذه الامتيازات، ولم يحوِّل النَّظَر يومًا إلى نفسه على الرّغم من إنجازاته وأتعابه واضطهاداته الكثيرة التي عدَّد بعضًا منها مرَّةً إذ قال: "أهُمْ خدّامُ المسيح؟ أقول كمختلٍّ العقل فأنا أفضل: في الأتعاب أكثر، في الضَّربات أوفر، في السُّجون أكثر، في الميتاتِ مرارًا كثيرة. من اليهود خمس مرَّاتٍ قبلتُ أربعين جلدَةً إلاّ واحدة. ثلاث مرّات ضُربتُ بالعِصيّ، مرّةً رُجِمت، ثلاث مرّات انكسرت بي السَّفينة، ليلاً ونهارًا قضيتُ في العمق. بأسفارٍ كثيرة، بأخطارِ سيول، بأخطارِ لصوص، بأخطارٍ من جنسي، بأخطارٍ من الأمم، بأخطارٍ في المدينة، بأخطارٍ في البريّة، بأخطارٍ في البَحر، بأخطارٍ من إخوَةٍ كذبة. في تعبٍ وكدٍّ، في أسهار مرارًا كثيرة، في جوعٍ وعطشٍ، في أصوام مرارًا كثيرة، في بردٍ وعريٍ. عدا ما هو دون ذلك التراكم عليَّ كلّ يوم، الاهتمام بجميع الكنائس" (٢كورنثوس ١١: ٢٣ -٢٨). كان بإمكان هذا الرَّجُل المجرَّب بشتَّى أنواع التجارب أن يسقط في فَخِّ

التفاخُـر بأعمالـه، لكنّـه آثر أن يفتخر فقط بصليب يسـوع المسـيح. أضف إلـى كلِّ مـا تحمَّلُـه وعانـاه، فـإنَّ اختباراتِـه ومعامـلاتِ الـرَّبِّ معـه كانـت مُميَّـزة وخصوصًـا حيـث كتـب يقـول للكورنثيّيـن: "إنَّـه لا يوافقنـي أن أفتخـر، فإنّـي آتـي إلـى مناظـر الـرَّبِّ وإعلاناتِه. أعرف إنسـانًا في المسـيح قبل أربع عشـرة سـنة. أفي الجسـد؟ لسـت أعلم، أم خارجَ الجسـد؟ لسـت أعلـم. اللـه يعلـم. اختُطِفَ هذا إلـى السَّـماء الثالثة. وأعرف هذا الإنسـان: أفـي الجسـد أم خـارجَ الجسـد؟ لسـت أعلـم. اللـه يعلـم. أنَّه اختُطِـفَ إلى الفـردوس، وسـمع كلمـات لا يُنطـق بهـا، ولا يسـوغ لإنسـان أن يتكلّـم بهـا" (٢كورنثـوس ١٢: ١ -٤). فقـد قالهـا بصراحة للمُشـكِّكين والمقاومين والمُسـيئين، الذيـن كانـوا كثيريـن في حياتـه: "فإنّـي إن أردتُ أن أفتخر لا أكـون غبيًّـا، لأنّـي أقـول الحَـقَّ. ولكنّـي أتحاشـى لئلّا يظـنّ أحدٌ مـن جهتي فـوق مـا يرانـي أو يسـمع منِّـي. ولئـلّا ارتفـع بفـرط الإعلانـات، أُعطيـتُ شـوكةً فـي الجسـد، مـلاك الشَّـيطان ليلطمَنـي، لئـلّا أرتفـع" (٢كورنثـوس ١٢: ٦ و٧). حتـى عندمـا اضطـرَّ إلـى سـرد بعـض الحقائـق لضَحـدِ الحجـج والاتّهامـات التـي كانـت توجَّه ضِـدَّه كان خائفًا من أن يَظهـر وكأنَّه يفتخر. هـذا إنسـان بالحَـقّ ممتلِـئٌ مـن معرفـة الـرَّب ولا يحتـاج أن يرتـوي مـن تقديـر أحـد. لقـد أظهـر أنَّ الصَّليـب لـم يكن شـعارًا يتغنّـى به فقـط، إنَّما كان حياتَـه وانتماءَه.

قوَّة الصَّليب

كان الرَّسـول بولـس يمتلـك فضائـل كثيـرة وعظيمـة، تمثّلـت بكونـه مُحبًّا ومُضحّيًـا ومتواضعًـا وشـجاعًا. فإنّنا نكاد نجد، إن صَـحَّ التَّعبير، كلّ الفضائل

المسيحيّة في هذا الرَّسول. ولكنّه على الرّغم من ذلك، لم يفتخر بأيٍّ ن هذه، إذ لا شيءَ يعلو إزاء محبّتِه لمن أحبّه أوَّلًا وأسلم نفسه لأجله. فما من فضيلة أو بطولة أو إنجاز في الحياة أهمُّ وأسمى من محبّةِ الرَّبّ الخالق لنا وموتِهِ من أجل خطاة نظيرنا. فعندما يكتشف الإنسان أنّ خالق الكون قد اختاره ومات لأجل خلاصه داعيًا إيّاه للتَّوبة ثمَّ الاتّباع، لن يجد لديه ما يدعو للافتخار، إلّا خطّة الله للفداء بصليب يسوع المسيح. أمَّا من يتحرّك بقوَّة الرُّوح القدُس وفاعليَّة الصَّليب، فسوفَ يكتشف أنَّ الوسائل البشريَّة والجسديَّة غيرُ نافعة لخدمة السيّد. في هذا المَجال قال الرَّسول لكنيسة كورنثوس: "وأنا لمّا أتيتُ إليكم أيُّها الإخوة، أتيتُ ليس بسموٍّ الكلام أو الحكمة مناديًا لكم بشهادة الله. لأنّي لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلاّ يسوع المسيح وإيّاه مصلوبًا. وأنا كنتُ عندكم في ضعفٍ وخوفٍ ورعدةٍ كثيرة. وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانيَّة المقنع، بل ببرهان الرُّوح والقوَّة، لكي لا يكون إيمانُكم بحكمة النّاس بل بقوّة الله" (١كورنثوس ٢: ١ -٥). **فالرَّسول أدركَ تمامًا أنَّ القوَّة تكمُن في الصَّليب، فكرزَ به وحده.**

عندما يفهم المؤمن معاني صليب المسيح في حياته كما فعل بولس الرَّسول، سيختبرُ قوَّةَ الله في حياته وفي خدمته أيضًا. إنَّ الصَّليب وحده يغنينا عن الافتخار والتباهي، إذ فيه صنع الرَّبُّ فداءً وكفّارةً بديليَّة كافية ووافيه لجميع المؤمنين. فلماذا الافتخارُ بسواه!؟ إذًا، **أيُّ فخرٍ للمؤمن مضافٍ إلى فخره بالصَّليب هو إهانة له.** لهذا السَّبب بالذّات شدَّد الرَّسول بولس على بشاعة خطيَّة الافتخار بأيِّ أمرٍ مهما كان مهمًّا عدا الصَّليب. فالرَّجُل المقدام، رسول الأمم، المبشِّر من

الطِّراز الأوَّل، مـن ضَحَّـى وتعـب وكافح واضطُهـد أكثر مـن جميعِهِم قال: "وَأَمَّـا مِـنْ جِهَتِـي، فَحَاشَـا لِـي أَنْ أَفْتَخِـرَ إِلاَّ بِصَلِيـبِ رَبِّنَا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ" (غلاطيـة ٦: ١٤).

روعة الصَّليب

لقـد اختبـر الرَّسـول بولـس فـي الصَّليـب عُمـق محبَّة اللـه وبشـاعة خطيَّة الإنسـان. مـن أجـل ذلـك أحـبَّ الصَّليـب وتمسَّـك بـه ليـس كأداة خشـبيَّة مـات عليها المسـيح، بـل كمبدأ يُعَبِّـر عن عقيـدة النِّعمَة المُخلِّصة. عندما يكـون الصَّليـب محورَ الكـرازة وموضوعَها، تأخذ النِّعمـة مكانتَها الصَّحيحة فـي عقيدتنـا وبالتَّالـي في سـلوكنا وخدمتنا.

يُظهـر الصَّليـب معنـى المحبَّة غيـر المشـروطة والتي تبـادر أوَّلًا. كما يؤكِّـد أنَّـه لـولا مـوتُ المسـيح علـى الخشـبة لمـا خَلُـص أحـدٌ من فسـاده وضلالـه. فقـد صـار وهـو الإله القـدّوس البـارّ لعنةً وخطيّـةً وفديـة بديليَّة وحيـدة قـادرة أن تُرضـي عدالـة الله وقداسـته. وبمـا أنَّ الصَّليب هو عمل المسـيح، ونتيجـة مشـيئته، فـإنَّ الفضـل بخلاصنـا يعـود إليه وحـده. وهذا مـا يُعَبَّـر عنـه بسـلطان اللـه الكامـل بالخـلاص. **فمـا مـن شـريكٍ آخـر فـي عمـل الخـلاص، ولا حتـى مـن سـاهم بإتمـام أيِّ شَـيءٍ منه.**

إنَّ الصَّليـب وحـده يكشـف لنـا عـن الثَّمَـن الباهـظ الذي دُفـع لإتمام عمليَّـة خلاصنـا، مؤكِّـدًا فـي الوقـتِ عينِـه أنَّ أعمـال الإنسـان مهمـا كانت علـى قـدرٍ من القيمَة لا تسـتطيع أن تخلِّصه. ولذلك يبقـى الصَّليب الحاجة الوحيـدة للكفَّـارة عـن خطايانا، بالإضافة إلـى أنَّه منفردًا هـو الذي يجذب

الإنسان إلى التوبة ويحييه من فساده الكُلّي وقساوة قلبه البعيد.

هناك جدلٌ قديم في الأوساط المسيحيَّة الكتابيَّة يتمحور حول عَمَّن يسبق الآخر، أهو الإيمان أم التّجديد؟ كما يطال هذا الجدلُ الأسبقيَّةَ في عمليَّة التحوُّل، أهو الإنسان عندما يؤمن، أم اللهُ عندما يلِدُه بروحِه من جديد؟ سؤالان يستحقّان التأمُّل فيهما. يأتينا الجواب: **أمِن الممكن أن يصرخ الإنسانُ الميّتُ روحيًّا قبل أن يسمع دعوة الله له في الصَّليب؟** كتب الرَّسول بولس لكنيسة أفسس يقول لهم: "وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ" (٢: ٥). أليست هذه الكلمات تأكيدًا أنَّ الحياة الجديدة تبدأ مع المسيح وبسبب الصَّليب أوَّلًا؟ ألا يُعلِّم الكتابُ أنَّنا نوهَبُ الإيمانَ والتَّوبَة، وأنَّه بدون الرُّوح القدُس لا نستطيع حتى أن نفهَمَ الأمور الرّوحيَّة والأبديَّة. تطالعنا رسالة كورنثوس الأولى في الأصحاح ١٢ بهذه الحقيقة اليقين التي لا تقبل الشَكّ: "لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (٣). ويقول يوحنَّا أيضًا في رسالته الأولى: "كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ" (٥: ١). أمّا إنجيل يوحنّا فيحدِّد لنا من هو المبادر الأوَّل في عمليَّة قبولنا الخلاص: "اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي... هَذَا قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْ أَبِي" (٦: ٦٥).

أيمكن لأي مؤمن أن يُنكر أنَّ محبَّة المسيح التي ظهرت في الصَّليب هي التي كسَرَت قلبَه وشفت ارتدادَهُ ودفعَتْه إلى التَّوبة والإيمان؟

يخاف البعضُ من قبول هذه الحقيقة إذ تجعلُ، على حدِّ قولهم،

الخلاصَ بيدِ الله من دون أي دور للإنسان. لكن لنتأمّل في هذا الموضوع ونسأل أنفسنا: مَن كان المُبادرَ الأوَّل في عمليَّةِ خلاصنا؟ مَن اختار مَن وعلى أيّ أساس؟ ولو تأمّلنا بما كتبه بولس لتلميذه الحبيب تيموثاوس في رسالته الثانية له، مُشجِّعًا ومُطمئنًا إيَّاه وكلَّ المؤمنين عبر العصور والأجيال وصولاً إلينا نحن، أنَّ خلاصنا كمؤمنين هو بيدِ إلهنا، وأنَّ هذا الخلاص قد أُعطي لنا حتى قبل أن نطلبَه: "الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لاَ بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ" (١: ٩). يا لها من حقيقةٍ مجيدَةٍ ومدهشة من ضمن روائع الصَّليب.

إنَّ فهم موضوع الفداء يعطي الإنسان رؤيَةً واضحةً لانتصار المسيح الكامل على الصَّليب. فالصَّليب يرتبط بالقيامة والعكس صحيح. فالمعركة قد اعتُبرت بحُكم المنتهية بعد قيامة المسيح من الأموات. لذلك من غير الممكن لأي شخص وُلِدَ ولادَةً جديدة مختبرًا عمل الصَّليب، أن يعود ويخسر ما قد أعطي له قبل الأزمنة الأزليَّة. فلا عودة لاتّحاد المؤمن بالمسيح: "لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ" (افسس ٥:٣٠). **من الإستحالة تكرارُ الموت والقيامة مع المسيح. وهذا ما كتبَه بولس نفسُه بوحيٍ من الرُّوح القدُس لأهل غلاطية:** "مع المسيح صُلبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنّما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبّني وأسلم نفسَه لأجلي" (٢: ٢٠). بسبب هذا الحَقِّ وهذا الإنتصار المؤكَّدَين والمُثبَّتَين في الماضي على تلَّةِ الجُلجُثة، لا خطر على مستقبل أي مؤمن في المسيح.

إنَّ خلاص المؤمن مضمونٌ من دون أدنى شَكٍ بيدِ الله القديرة، لكن الأجمل من ذلك، أنَّه مضمون أيضًا لأنَّه ببساطة قد تَمَّ. هكذا تتجلَّى عقيدة النِّعمة هذه عندما نتمتَّعُ بروعة الصَّليب ومفاعيله في حياتنا.

إنَّ الصَّليب هو التَّعزية في الآلام، والعزيمة عند الحيرَة والضَّمان ساعة الموت.

لقد سدَّد الصَّليب لهذا الرَّجُل الطرسوسيِّ حاجته، وكان كلَّ كفايته، وموضوع خدمته، وسبب افتخاره، ومبعثَ راحتِه، وضمانتَه الأكيدة.

الفصل

١١

رسول النّعمة

«إنَّ الظنَّ بأنّنا نستطيع أن نحقِّق أيَّ شيءٍ يطلبه الله منّا بقدرتنا الذاتيَّة، هو اعتبارٌ صليبٍ يسوع المسيح ونعمتِه بلا تأثير.»

جون أوِن

عَمِلَ الرَّسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس على تذكير الإخوة بأهميَّة مضمون الإنجيل الذي قبلوه وسمعوه وسلكوا فيه، فكتب يقول لهم: "وأعرِّفكم أيُّها الإخوة بالإنجيل الذي بشَّرتُكم به، وقبلتموه، وتقومون فيه..." (١٥: ١). ثمَّ انتقل في الأصحاح نفسه للحديث عن عمل النِّعمة في حياته: "وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أَنَا مَا أَنَا وَنِعْمَتُهُ الْمُعْطَاةُ لِي لَمْ تَكُنْ بَاطِلَةً بَلْ أَنَا تَعِبْتُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ جَمِيعِهِمْ. وَلَكِنْ لاَ أَنَا بَلْ نِعْمَةُ اللهِ الَّتِي مَعِي" (١٠). لم يكن كلام الرَّسول هذا بغرض التَّباهي، بل من أجل مجدِ الله وفائدة كنيسة كورنثوس. هذا ما يؤكّدُه أسلوبُ كاتب الرِّسالة ومضمونُها، إذ نراه يعتبر نفسه أصغر

الرُّسل على الرّغم من كثرة رحلاته وأتعابه وتحمُّله الضِّيقات والتجارب في سبيل الإنجيل. لقد حسِب نفسَه الأصغر والأقلَّ استحقاقًا لهذه الخدمة إذ أنّه سبق واضطهد كنيسة الله. لهذا رأى نفسَه آخِر الكُلّ، وبذلك فهو يُرجعُ الفضلَ لنعمة الله التي جعلت منه رسولًا وخادمًا للمسيح، يشهد ببشارة تلك النِّعمة. لقد عظّم الرَّسول بولس نعمة الله لا نفسه. هذا وقد كشف أيضًا كيف تستطيع نعمة الله أن تعملَ في ومن خلال إنسانٍ ساقطٍ مثله، إذ ردَّد في معظم رسائله وفي أكثر من مكان أنَّ الفضلَ كلّه يعود إلى نعمة الله التي أدركته. وعليه، نستطيع أن نقول، أنَّ **مَنْ سبق واضطهد الكنيسة، أصبح الأكثر عَمَلًا وتعبًا لأجلها**. إذًا، هذه النِّعمة هي من جعلت بولس أعظمَ الرُّسل بعد أن كان أصغرَهم، وهي نفسُها تستطيع أن تقيم أشخاصًا عظماءَ وناجحين في خدمة الإنجيل، يدافعون عنه بغَضّ النَّظَر عن ماضيهم ومحدوديَّة مواهبهم وصعوبة ظروفهم.

قوَّة النِّعمة

إنَّ من يطّلع على رسائل الرَّسول بولس وتحديدًا على كلامِه فيما يخصُّ أعماله وخدمته، يدرك أنَّه لا يربطها بشخصيّته كإنسان أو بمجهوداته البشريّة، بل بقوَّة النِّعمة العاملة في حياته. لقد أكّد أنَّ غيرته الشَّديدَة وعزمه الثَّابت كانا يأتيان من النِّعمة فقط. لذلك نراه شديد الحرص في رسائله أن يُظهر هذا الحَقّ، حتى عُرِفَ برسول النِّعمة. **إنَّ النِّعمَة التي اختارت الرَّسول بولس وَدَعَته من دون استحقاق، هي النِّعمة نفسُها التي بشَّرَ بها الآخرين.**

عَـرَّف بولـس عـن نفسـه فـي بدايـة رسـالته إلـى أهـل غلاطيـة قائلاً: "بولـس رسـولٌ لا مـن النّـاس ولا بإنسـان، بـل بيسـوع المسـيح والله الآب الـذي أقامـه مـن الأمـوات" (١:١). مـن الواضـح بعد قـراءَة هـذه الكلمات أنَّـه لـم يسـتمدّ دعوتـه للخدمـة من بشـرٍ أو عن طريـق آخريـن، ولا حتى نتيجـة رغبـات قلـب إنسـان، بـل مـن علاقـةٍ وَطيـدةٍ بالـرَّبّ، واسـتجابةً لدعوتـه. **فمـن يسـتجيب لدعـوة الـرَّبّ للخدمـة، لا يقـدر أيُّ إنسـان أن يردَعَـه. وببسـاطة، كانـت** بسـالة بولس نتيجة طاعتِهِ واستسـلامه لمشـيئة اللـه التـي لـم يُـردْ أن يقاومَهـا، إنَّمـا قـاوم مـن شـكَّك بها.

إنَّ اختيـار المسـيح لبولـس تدحـض فكـرة اختيـار بولـس للمسـيح، إذ أعطـاه قـوّة متميّـزة، وكان سـببَ نجـاح مسـيرته الجهاديَّـة. فبعـد أن عزَمَ بفهمِـه وتديُّنـه علـى أن يضطهـد كنيسـة اللـه، نـراه بنعمـة اللـه يخضـع لخيـار هـذا الإله ومشـيئته، عامِـلًا ومناضلًا علـى تحقيقها. ففـي كلّ رحلاته التبشـيريّة الطويلـة شـهِدَ للإنجيل معتمـدًا عليه، فنجحَ وأفلح: "لأنّي لسـتُ أسـتحي بإنجيل المسـيح، لأنَّه قوّة الله للخلاص..." (رومية ١: ١٦). لقد كان يُقـدِّم إنجيـل النِّعمَـة، الأمر الذي سـبَّب له الاضطهـاد والرَّفـض والطَّرد من أقرانـه اليهـود أوَّلًا قبـل الأمـم. لـم توقفـه كُلُّ المعارضـات المُنظَّمـة ضدَّه، ولـم تثنِـهِ القيـود ولا السُّـجون ولا الضَّربـات ولا مخاطـر الأسـفار، ذلك لأنَّه عَلِـمَ وآمـن أنَّـه لـم يكـن رسـولًا مـن النَّـاس بـل مـن اللـه. فبشـارته كانت مرتبطـة بطاعتـه لمأموريَّـة الله له قبل أن تكون مرتبطة بأشـواق قلبه التي بـلا شـكّ كانـت منسـجمة معها مـن اليوم الـذي نطق بوعـد التَّسـليم للرَّبّ حيـن قـال لـه على طريقِ دمشـق: "يـا رَبّ، مـاذا تريد أن أفعل!" لقد شـعر بالضَّـرورة ملقـاة علـى كتفِـه. وكأنّـي بـه يشـعر بالمذنوبيَّـة فيما لـو أهمَلَ

التبشير: "لأَنَّهُ إِنْ كُنْتُ أُبَشِّرُ فَلَيْسَ لِي فَخْرٌ، إِذِ الضَّرُورَةُ مَوْضُوعَةٌ عَلَيَّ فَوَيْلٌ لِي إِنْ كُنْتُ لاَ أُبَشِّرُ" (١كورنثوس ٩: ١٦).

إنّ الإيمان المُخلِّص والغالب يُعطى كهبةٍ من الله بالنِّعمة: "لأَنَّهُ قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لأَجْلِ الْمَسِيحِ لاَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضاً أَنْ تَتَأَلَّمُوا لأَجْلِهِ" (فيلبي ١: ٢٩). **الإيمان الحَيّ هو عملُ الله في الإنسان قبل أن يبدو ظاهريًّا عمل الإنسان ومجهودَه:** "هَذَا هُوَ عَمَلُ اللَّهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ" (يوحنّا ٦: ٢٩)؛ "لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ" (فيلبّي ٢: ١٢). فالله الذي بدأ العمل هو من يكمِّله، شرط أن يكون هو محور هذا العمل وهدفه: "نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ" (العبرانيّين ١٢: ٢). إنَّ عِلمَ الرَّسول مؤكَّد بأنّ المسيح هو من أفرزه، وهو من دعاه من بطن أمِّه، وهو من أعطاه الثّقة واليقين بأنَّ العمل قد نجح سلفًا، فاللهُ هو صاحب العمل والخطَّة والتدبير. لذلك افتخر بولس بالضِّيقات والأوجاع التي لم ترمِهِ يومًا في أحضانِ الفشل أو الاحباط، والسَّبَب لأنّه استمدَّ القوَّة من النّعمة التي اختارته، والتي لا بدَّ أن تعمل على حفظِه أيضًا. هذا ما بشَّر به المؤمنين في كلِّ مكان حلَّ فيه وارتحل إليه: "وَاثِقاً بِهَذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (فيلبّي ١: ٦). ومع كلّ هذه القوّة الرُّوحيَّة التي ظهرت في الرَّسول بولس، إلّا أنَّه كان ضعيف الجسد. وعلى ما يبدو أنَّ علَّةً جسديَّة لازمته طيلة حياته. لذا، فإنَّ حضوره وتواجده لم يُخِفِ الآخرين، لكنَّ كلامَه كان قويًّا جدًّا ومنقادًا بالرُّوح القدُس. ركّز وقدَّم إنجيل النِّعمة وليس تعليم الخلاص من خلال حفظ النّاموس أو ممارسة الأعمال الصَّالحة، فشَهِدَ

للعالـم كُلّـه عـن قـوَّة الإنجيل ومجده ولم ينسَ يومًا سـببَ وجـودِه وثباته ونجاحـه: "وَلَكِـنْ بِنِعْمَـةِ اللـهِ أَنَا مَـا أَنَا" (١كورنثـوس ١٥: ١٠).

عمل النِّعمة

لقـد عَمِلـت النِّعمـة باسـتمرار فـي تطهير دوافـع ورغبات الرَّسـول بولس: "بـل كمـا استُحسِـنَّا مـن الله أن نؤتَمَنَ علـى الإنجيل، هكذا نتكلّـم، لا كأنَّنا نرضـي النّـاس، بـل اللـه الـذي يختبـر قلوبنـا" (١تسـالونيكي ٢: ٤). وعلـى الرّغـم مـن فداحـة المسـؤوليَّة المُلقـاة على كاهلـه، ظلَّـت اهتماماتُه كلُّها تصـبُّ فـي كيفيّـة إرضـاء اللـه لا النّـاس: "ولا طلبنـا مجـدًا مـن النّـاس، لا منكـم ولا مـن غيركـم، مع أنَّنا قادرون أن نكون في وقارٍ كرُسـل المسـيح" (١تسـالونيكي ٢: ٦). أوَليـس هـذا عمـل النِّعمَـة الـذي يحـرّر الإنسـان من عبوديَّـةِ الآخريـن ومـن السَّـعي لإرضائهـم علـى حسـاب إرضاء اللـه الذي يهتـمّ بقلـب الإنسـان ودوافعـه أوَّلًا. **إنَّ خدمـة النّـاس لا تعنـي إرضاءَهم، بـل إيصـال محبَّـة يسـوع ونعمته إلـى قلوبهم**.

إنّ أعظـم رسـول افتخـر بأنّـه عبـد ليسـوع المسـيح، وكان يُسَـرُّ بهذه التَّسـمية التـي اعتبرهـا امتيـازًا عظيمًـا، مُضحِّيًـا باسـتخدام سـلطانه وحقَّه كرسـول، لكـي يُعظِّـم النِّعمَـة ومـن أوصاه بـأن يُخبـر بها.

وبسـبب تعليمـه الكثيـر عـن النِّعمَـة، اتُّهـم بأنَّـه يدعـو النَّـاس إلـى العيـش بانحـلالٍ وتـراخٍ، إلاّ أنَّـه ثابـر واسـتمرّ ولم يفشـل فـي تقديم هذه النِّعمـة كمـا هـي بالحقيقـة: "ولكنَّنـي لسـتُ أحتسـب لشَـيءٍ، ولا نفسـي ثمينـةٌ عنـدي، حتّـى أُتمّـم بفـرَحٍ سـعيي والخدمـة التـي أخذتها مـن الرَّبّ

يسوع، لأشهدَ ببشارة نعمة الله" (أعمال ٢٠: ٢٤). كان لديه إصرار كبير في أن يُبشّر بنعمة المسيح حتى ولو أُسيءَ فهمُها أحيانًا. فمن غيرالممكن أن تكون هناك بشارة بغير نعمة الله في المسيح، إذ إنَّ جوهرَ الإنجيل والصَّليب هو أوَّلًا هذه النِّعمة التي يهبُها الله لمن لا يستحقّ، وهو كذلكَ الخلاصُ والتبريرُ اللذَين يحظى بهما الإنسان فقط من خلال فداء المسيح وكفّارة الصَّليب.

إنَّ تعليم النِّعمة هو تعليم يدعو إلى الثّبات في الحريَّة المسيحيَّة. **وأيُّ شيء نضيفه على تعليم الخلاص بالنّعمَة والعيش فيها، ليس سوى سقوط منها حتى لو كانت هذه الإضافة وصيَّة من وصايا الله المُقدَّسة. ففي رسالة غلاطية يقول الرَّسول:** "هَا أَنَا بُولُسُ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ إِنِ اخْتَتَنْتُمْ لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِيحُ شَيْئًا! لَكِنْ أَشْهَدُ أَيْضًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُخْتَتِنٍ أَنَّهُ مُلْتَزِمٌ أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ النَّامُوسِ. قَدْ تَبَطَّلْتُمْ عَنِ الْمَسِيحِ أَيُّهَا الَّذِينَ تَتَبَرَّرُونَ بِالنَّامُوسِ. سَقَطْتُمْ مِنَ النِّعْمَةِ" (٥: ٢ -٤).

حتى وصايا الله المُقدَّسة لا تستطيع أن تُبرِّرَ أحدًا، وذلك لاستحالة تطبيقها كلّها. أمَّا الذي يُبرِّر الإنسان فهو وحده برُّ المسيح المُعطى لنا، لا على سبيل الإستحقاق بل بالنِّعمة: "إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ، بَلْ بِإِيمَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (غلاطية ٢: ١٦). **باختصار، كان تعليم الرَّسول بولس عن عمل النِّعمة جازمًا: الخلاص الذي هو من عمل النِّعمَة كاملٌ ولا يحتاج إلى أن نضيفَ عليه شيئًا. أمَّا الثَّمَارُ الرُّوحيَّة والأعمال الصَّالحة ومحبَّة النَّاموس فهي نتيجة هذا الخلاص، وليست سببَه.**

نجاح النِّعمة

لقد جعلت النِّعمة من شاول الطرسوسيّ قدوَةً حسنة في كيفيَّة إرضاء الله أوَّلًا، ومن ثمَّ في عدم مشابهة العالم: "فكما قبلتم المسيح يسوع الرَّبّ اسلكوا فيه، متأصِّلين ومبنيِّين فيه، وموطّدين في الإيمان، كما عُلّمتم، متفاضلين فيه بالشُّكر. أُنظروا أن لا يكون أحدٌ يسبيكم بالفلسفة وبغرورٍ باطل، حسب تقليد النَّاس، حسب أركان العالم، وليس حسب المسيح" (كولوسي ٢: ٦ -٨). فالنِّعمة تُمكّنُ المؤمن من أن يتطهَّر من رائحة العالم ووسخِهِ ويتحلّى برائحَةِ المسيح الزَّكيَّة.

لا تسمح النِّعمة للمؤمن بنظر بولس أن يحيا حياة مستهترة وغير مبالية، بل حياة مقدَّسة ورزينة. فبعد أن تُخلّصَه هذه النِّعمة تشرعُ في تعليمِهِ أفضل الدّروس وأعمقِها: "لأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلِّصَةُ لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ" (تيطس ٢: ١١ و١٢). هذا ما فعلته النِّعمة بالقدِّيسين عبر العصور، وهذا ما نادى به جميع المُبشِّرين المُخلصين لكلمة الله التابعين مِثال الرَّسول بولس وبالتالي المعتمدين على النِّعمة وحدها: "الذي ننادي به مُنذرين كلَّ إنسان، ومعلّمين كلّ إنسان، بكلّ حكمة، لكي نُحضر كلّ إنسان كاملًا في المسيح يسوع" (كولوسي ١: ٢٨).

ربَّما يبدو الهدف الذي وضعه بولس الرَّسول لنا مستحيلًا. فمن يستطيع أن يُحضر أيَّ إنسانٍ إلى الكمال؟ ولكن بسبب رؤية بولس لعمل النِّعمة ونجاحِها في حياته، كقوَّةٍ من الله مُستقلَّة عن الإنسان،

استطاع أن يثقَ بها وبهدفها. فالوصول إلى الكمال، والمقصود هنا ليس الكمال المُطلق بل النُّضج الرُّوحي، لا يمكن تحقيقُه بأعمال الإنسان وجهاده اليَوميّ، بل فقط بقوّة النِّعمَة التي تنجح في هداية هذا الإنسان وقيادته إلى الحياة الأبديَّة مع يسوع بعد العتق المُنتظر من الجسَد: "نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضًا نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا مُتَوَقِّعِينَ التَّبَنِّيَ فِدَاءَ أَجْسَادِنَا" (رومية ٨: ٢٣). فالصِّراع بين الجسد والرُّوح سوفَ يستمرُّ على الأرض ما دمنا أحياء، والحاجة دائمة إلى معونة الرَّب وروحِه في هذا المجال: "وَكَذَلِكَ الرُّوحُ أَيْضًا يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا" (رومية ٨: ٢٦). من المهمِّ أن ندركَ أنّ الحريَّة التي حرَّرنا بها المسيح هي واقعٌ جديد لكلِّ مؤمن بسبب النِّعمَة: "فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ" (رومية ٦: ١٤)، لكنَّ التحدِّي الذي يواجه المؤمن هو الاستمرارُ باعتماده على تلك النِّعمة في التقديس كما في الخلاص، ولا يلجأ إلى الجسد، الأمر الذي فعله بعضُهم في كنيسة غلاطية: "أَهَكَذَا أَنْتُمْ أَغْبِيَاءُ! أَبَعْدَمَا ابْتَدَأْتُمْ بِالرُّوحِ تُكَمَّلُونَ الآنَ بِالْجَسَدِ؟" (غلاطية ٣: ٣).

سُموُّ النِّعمة

لم يجعل تعليم النِّعمة بولس أقلَّ قداسةً من غيره، بل على العكس، كان نموذجًا ومثالًا لأنَّه تمثَّلَ بالمسيح. يفاخر بعض النَّاس بما يظنّونه حقَّهُم باستباحة نعمة المسيح، فيتحجَّجون بوجودِها ليُعطوا فرصة للجَسَد لكي يسود ويشتهي ضِدَّ الرُّوح، وبالتّالي يدافعون عن حياةٍ لا تهاب الله القدُّوس.

لكـن مـن يختبـر النِّعمـة الحقيقيَّـة لا يمكنُـه إلّا أن يعيش فـي مخافة الـرَّبّ ويتعامـل مـع دعوتـه المقدَّسـة بجديَّـة. لا يوجـد اسـتخفاف مـع الخطيَّـة فـي المسـيحيَّة الحقيقيَّة، بل غلبـة عليها ونمُوٌّ بعيـدًا عنها، وتقدَّم أكثـر فـي الكشـف عـن أحابيلهـا وإسـقاط أقنعتِهـا مـن خلال صـراع يوميٍّ ضدّهـا: "كُلُّ مَـا لَيْـسَ مِـنَ الإِيمَانِ فَهُـوَ خَطِيَّةٌ" (روميـة ١٤: ٢٣). لا يوجد اسـتهتار بوصايـا الـرَّبّ فـي المسـيحيَّة الحقيقيَّـة، بـل حبٌّ واحترام شـديد لهـا ولهَـجٌ يومـيٌّ بهـا. لقد أطاع المسـيح يسـوع نفسُـه وصايا الله فـي أيَّام تجسُّـده مُتمِّمًـا كلَّ بـرٍّ. **النِّعمـة تُخلِّـص وتُعلِّـم وتُقـدِّس وتُمجِّـد اللـه، ولا يمكـن الحصـول علـى أيٍّ مـن هـذه النَّتائـج مـن دون الأخيـرة ألا وهـي تمجيـده.** فعمـلُ اللـه كاملٌ ومرتبـط بمشـيئتِه الصَّالحة وقدرتـه العظيمة.

فبولـس رسـولُ النِّعمـة هـو الـذي يدعونا لكـي نخلع الإنسـان القديم مـع أعمالـه ونلبـس كمختاري اللـه القدِّيسـين المحبوبين الإنسـان الجديد لنصيـر أكثر مشـابهةً بالرَّبّ يسـوع المسـيح على نحوٍ تدريجـيٍّ وتصاعديّ، مقتديـن بـه تماشـيًا وتناغمًـا مع عمل النِّعمة السَّـامي في حيـاة المؤمنين. فحيـث توجد النِّعمـة، توجد الحُريَّة والقداسـة.

الفصل

١٢

شُركاء الخدمة

«في المسيح، نحن ننتمي إلى الله ليس فقط كمواطنين مع القدِّيسين في مملكته، بل كأُخوةٍ وأخواتٍ في بيته.»

جون ماكآرثر

شارك الرَّسول بولس الكثيرين من القدِّيسين في الخدمة، فكانت رسائله مليئَةً بتعابير المحبَّة والتقدير والشُّكر لهم. فقد خصَّص ما لا يُستهان به من كتاباتِه وحتَّى القصيرة منها لمَدح وشُكر وذِكر من جاهد معه في خدمة الإنجيل، من دون أن ينسى مَن تَعِبَ في الاهتمام به بشكلٍ خاصّ. فما نجده في رسائله من تحيّات وتوصيات لشُرَكائه، تعكس سموَّ مشاعره وأخلاقه في معاملة الآخرين من حوله. قد يُبرِّر البعض قسْوَتَهم مع العاملين معهم بحجّة ثِقل الحِمل وكثرة المسؤوليَّة وتفانيهم الشَّديد للعمل. لكن بولس الرَّسول لم يكن واحدًا من هؤلاء على الرّغم من عظمة المُهمَّة وصعوبتِها. فقد عكست تحيَّاتُه وسلاماتُه

محبَّتَه الشفافة وعاطفته المُخلصة لكُلّ من كان حوله.

كيف ذكَرَ الآخرين؟

وصف تيخيكس لدى ذكرِهِ إيَّاه بأجمل الألقاب، فكتب: «جَمِيعُ أَحْوَالِي سَيُعَرِّفُكُمْ بِهَا تِيخِيكُسُ الأَخُ الْحَبِيبُ، وَالْخَادِمُ الأَمِينُ، وَالْعَبْدُ مَعَنَا فِي الرَّبِّ» (كولوسي ٤: ٧). وفي الرِّسالة نفسِها ذكَرَ أُنسيمس وقال عنه: «الأَخِ الأَمِينِ الْحَبِيبِ الَّذِي هُوَ مِنْكُمْ.» بعدها قال عن أرسترخس بأنّه: «المأسور معه.» فهُمْ بحسبِ تعبيرِه صاروا له تسليةً وعَزَاء. وفي العدد ١٢ يذكر أبفراس ويصفه بأنَّه: «عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ، مُجَاهِدٌ كُلَّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ بِالصَّلَوَاتِ.»

ففي كلِّ رسالةٍ كان يُعدّد العاملين معه ويذكرُهم بكلام راقٍ ومُشجِّع دون أن ينسى أحدًا. لا بدَّ أنَّ أيَّة مقارنة مع هذا الرَّسول قد تظلم كلَّ مَن خدم معه، لكن لكونه تشبَّه بسيِّدِه، فقد أعطى الجميع احترامًا وكرامةً وتقديرًا. **من لا يعرفُ كيف يُكرم الآخرين، لا يستحِقُّ هو نفسُه الإكرام.**

حبَّذا لو انَّ كلَّ خادم يسأل نفسَه هذا السُّؤال: ماذا أقول عن الآخرين الذين يخدمون معي؟ هل عندي نيَّة أن أظهرَ ضعفاتِ الآخرين وتبيان أخطائِهم؟ وعندما أفحص دوافعي، أيوجد شَيْءٌ من الغيرة من أشخاصٍ ناجحين أخدم وإيَّاهم في الخندق نفسِه؟! فمع أنَّ الرَّسول بولس كان مُحَارَبًا ومُضطَهدًا بشكلٍ كبير، إلاّ أنّه وجِدَ دائمًا مساحة في رسائله لكي يقول أمورًا جيّدَةً ومُشجِّعَةً عن العاملين معه. فما

قالـه لأهـل تسـالونيكي مثـالٌ علـى ذلـك: «لأَنَّكُـمْ أَنْتُـمْ مَجْدُنَـا وَفَرَحُنَـا» (١تسـالونيكي ٢: ٢٠). حتـى عندمـا كتـب ينقـل سـلامًا مـن شـخص، أثنـى عليـه ومدَحَـه: «يُسَـلِّمُ عَلَيْكُـمْ غَايُـسُ مُضَيِّفِـي وَمُضَيِّـفُ الْكَنِيسَـةِ كُلِّهَـا» (رومية ١٦: ٢٣).

ومـع أنَّ دورَه التأسيسـيّ والتَّعليمـيّ فـي الكنيسـة الأولـى شـمل مواجهـة الضَّـلالات والبـدع والإخـوة الكذبـة، إلّا أنّـه لـم يجـد صعوبة في تشـجيع عـدَدٍ كبيرٍ مـن رفاقه والتنويه بهـم وإبراز إخلاصهـم وأمانتِهم في محَبَّـة يسـوع واتّباعه.

كيف عَمِلَ للآخرين؟

مـن المؤكَّـد أنَّ الرَّسـول بولـس قـام بأعمـال وخدمـات كثيـرة مدوَّنـة في الكتـاب المقـدَّس، ناهيكـم عـن التـي لـم يذكرها الوحـيُ المقـدَّس. فآلامُه وأتعابُـه الجسـيديَّة والنَّفسـيَّة بالإضافة إلى تضحياته تشـهد لهـذه الأعمال والخدمـات التي رافقتها مشـاعرُ مفعمـة بالمحَبَّة والاهتمـام: «مَنْ يَضْعُفُ وَأَنَـا لاَ أَضْعُـفُ؟ مَـنْ يَعْثُـرُ وَأَنَـا لاَ أَلْتَهِـبُ؟» (٢كورنثـوس ١١: ٢٩). فلـم تقتصـر خدمتُـه علـى البشـارة والتَّعليـم والجهـاد ضِـدَّ المُقاوميـن، بل من اللّافـت أنَّهـا طالـت أيضًـا خدمـة التَّعزيـة والاهتمـام بشـؤون الآخريـن المعيشـيَّة والحياتيَّـة: «الـذي أرسـلتُه إليكـم لهـذا عينـه، ليعـرف أحوالكم ويعـزّي قلوبكـم» (كولوسـي ٤: ٨). مـن السَّـهل أن نقـف عنـد توصيـات بولـس وتوجيهاتِـه للكنائـس، بالإضافـة إلى التعاليـم الكثيرة التي أرسـاها، وننسـى جـزءًا مهمًّـا مـن التَّعزيـات التـي كان يرسـلُها إلـى إخوتـه فـي كلّ

مكان. فنراه يرسل تيخيكس بمهمَّة خاصَّة، لكي يعزّي قلوب إخوته في كولوسي. فسُموُّ مهمَّتِهِ وإرساليَّتُهُ لم يُثنِياه عن النَّواحي الإنسانيَّة والعاطفيَّة والاهتمام بأمور إخوته المعيشيَّة.

هذه الكلمات التي رافقت رسائله لم تكن مجرَّدَ سلاماتٍ خِتاميَّة لطيفة، بل كانت تحمل بركاتِ السَّلام الحقيقيّ في المسيح والمودَّة الأخويَّة، الأمر الذي لا بدَّ أن يُثمرَ تعزية. لقد أرسل تحيَّاتِه الصَّادقة وسلاماتِه المملوءَة بالمحَبَّة مكتوبة بيدِهِ ليُظهر لهم كم يهتَمُّ لأمرهم. صحيح أنَّ شخصًا آخر كان يخطُّ له الرَّسائل لضعف نظره، لكن كانت عاطفته من نحوهم ظاهرة تُسكَبُ بين السُّطور وتذوب في كلمات رسائله: «السَّلام بيدي أنا بولس» (كولوسي ٤: ١٨). أرسل إليهم قُبلاتِه حتى يتذكّروا حقيقة محبَّتِهِ لهم وصدق تحيَّاته: «سَلِّمُوا عَلَى الإِخْوَةِ جَمِيعاً بِقُبْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ» (١ تسالونيكي ٥: ٢٦). **لا يكفي أن تكون المشاعر المُقدَّسة حاضرَةً عندنا، بل يجب أن تكون ظاهرة وعمليَّة**. من اللّافت أنَّه وصفَ من عملوا معه كأحبَّاءَ وليس كزملاء: «سَلِّمُوا عَلَى أُورْبَانُوسَ الْعَامِلِ مَعَنَا فِي الْمَسِيحِ وَعَلَى إِسْتَاخِيسَ حَبِيبِي» (رومية ١٦: ٩).

كيف دعم خدمة الآخرين؟

يتساءَلُ البعض، كيف يمكنُنا أن ندعم خدمة الآخرين؟ وهنا أمامنا الجواب من حياة بولس رسول النِّعمة. فهو قد لجأ إلى الصَّلاة والكلام المُشجِّع والمواقف المُساندة، وحتى النُّصح عند كلّ فرصة متاحة، لكي يرفع من معنويّات الآخرين، ويمدَّهم بشحناتٍ من التشجيع والدَّعم.

قال لأعضاء كنيسة كولوسي: «يسلّم عليكم أبفراس، الذي هو منكم، عبدٌ للمسيح، مجاهد كلَّ حين لأجلكم بالصَّلوات، لكي تثبتوا كاملين وممتلئين في كلّ مشيئَةِ الله. فإنّي أشهد فيه أنَّ له غيرَةً كثيرة لأجلكم، ولأجل الذين في لاودكيّة، والذين في هيرابوليس» (٤: ١٢ و١٣).

لقد شهد أمام الجميع عن أبفراس ذاكرًا جهاده كلّ حينٍ في الصَّلاة، كما شهد عن غيرته لأجل الكنيسة التي في غلاطية. يا له من دعمٍ قويٍّ قدَّمه له من خلال هذه الشّهادَة الحسنة! **إنَّ إعلان خدّام المسيح عن تقديرهم بعضهم لبعض يكشف أمانتَهم للمسيح، فيما النَّميمَة والرَّغبة بالتحقير تكشف عن قيادة الجسد لا الرّوح**.

أما عن أرخبّس الخادم، فقد خصَّصه بتشجيعٍ مباشر في رسالته إلى أهل كولوسي: «وقولوا لأرخبّس: انظرْ إلى الخدمة التي قبلتَها في الرَّبّ لكي تُتمِّمَها» (٤: ١٧). أي قولوا له أنَّني أؤمن بخدمتِهِ وأثق بعملِ الرَّبّ في حياته، وأنَّه سوفَ يستخدمه على الرّغم من ضعفه وتردُّده. كم كانَ يحبُّ أن يُضيْءَ على ثمار عمل المسيح ورائحتِه في قدّيسيه: «سلّموا على تريفينا وتريفوسا التاعبين في الرَّبّ. سلّموا على برسيس المحبوبة التي تعبت كثيرًا في الرَّبّ» (رومية ١٦: ١٢). لقد أشاد بتعبهم وبتميُّزِهم في هذا التَّعَب.

أظهر الرَّسول بولس اهتمامًا وعطفًا مُتميّزًا تجاه الآخرين، لا سيَّما الذين يخدمون معه بأمانةٍ للرَّبّ. فنراه في رسالة رومية يُخصِّص جزءًا كبيرًا من هذه الرِّسالة اللّاهوتيَّة للسَّلامات والتَّشجيعات والتَّعزيات،

فقال للإخوة في كنيسة رومية: «أوصي إليكم بأختِنا فيبي التي هي خادمة الكنيسة التي في كنخريا، كي تقبلوها في الرَّبّ كما يحقُّ للقدِّيسين، وتقوموا لها في أيّ شيء احتاجته منكم، لأنَّها صارت مساعدة لكثيرين ولي أنا أيضًا» (١٦: ١ و٢). إنَّه يوصي بها ويُطالبُهم بأن يكونوا على استعداد لمساندتها. أيعني هذا أنَّ بولس الرَّسول لم يكن يرى أيَّ ضعفٍ أو قصورٍ في هؤلاء الأشخاص الذين مدحهم؟ هل برأيكم يتوافق معهم في كُلّ شيء؟ بالطبع لا! من الطبيعيّ أنَّه لاحظ الكثير من الأمور التي كان يجب العملُ عليها لكي ينموا أكثر في الإيمان، لكنّه مع هذا دعَمَهم وأعطى اهتمامًا خاصًّا للإيجابيَّات والصِّفات الحسنة التي تمتّعوا بها، فقدّم التشجيع عبر إظهار نقاط القوَّة في حياتهم: «سلّموا على بريسكلاّ وأكيلّا العاملين معي في المسيح يسوع، اللذَين وضعا عنقَيهما من أجل حياتي، اللذَين لست أنا وحدي أشكرهما، بل أيضًا جميع كنائس الأُمم» (رومية ١٦: ٣ و٤).

كان يَعْلَم أنَّ الإساءَة للآخرين هي عملٌ خسيس، وأنَّ القوَّةَ والشَّجاعة هي في دعمهم. بهذه المواقف أكَّد أنَّ وفاءَه وإخلاصه كان أوَّلاً للمسيح. فقد رافقت العواطف المُرهفة خدمة هذا الرَّسول وكان اهتمامُه ليس بالأقوياء فقط، بل بالضّعفاء أيضًا: «فَيَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ الأَقْوِيَاءَ أَنْ نَحْتَمِلَ أَضْعَافَ الضُّعَفَاءِ وَلاَ نُرْضِيَ أَنْفُسَنَا» (رومية ١٥: ١).

ربَّما يتجنَّب بعضٌ من المؤمنين تقديم شهادة حسنة عن الإخوة الآخرين، لا سيَّما حديثي الإيمان، لا عن كبرياء أو غيرة، بل بسبب الخوف وعدم الثقة في مستوى إيمان هؤلاء وإمكانيَّة ثباتهم إلى النّهاية. هذا

أمرٌ يُسيْءُ إلى عقائد النِّعمة المُخلِّصة ولسيادة الله القادرة أن تجعل من الحجارة أولادًا لإبراهيم. أليس كُلّنا في الموازين إلى فوق؟ وهنا، لا بدَّ من التَّنبير على أنَّ لا مساومة على الأمور التي تختصُّ بالإنجيل، أي بشخص المسيح والصَّليب، لكن بخصوص الأمور الثانويَّة والخلافيَّة كتب الرَّسول يقول: «مَنْ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ؟ هُوَ لِمَوْلاَهُ يَثْبُتُ أَوْ يَسْقُطُ. وَلَكِنَّهُ سَيُثَبَّتُ لأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُثَبِّتَهُ» (رومية ١٤: ٤)؛ «وَأَمَّا أَنْتَ فَلِمَاذَا تَدِينُ أَخَاكَ؟ أَوْ أَنْتَ أَيْضًا لِمَاذَا تَزْدَرِي بِأَخِيكَ؟ لأَنَّنَا جَمِيعًا سَوْفَ نَقِفُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ» (١٠).

حتى عندما كتب الرَّسول أصعب رسائله التوبيخيَّة والتي تُعتَبَر قاسية، كان يختمُها بالتشجيع غير خائفٍ من دعوة من كتَبَ إليهم موبِّخًا بالإخوة: «أخِيرًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ افْرَحُوا. اكْمَلُوا. تَعَزَّوْا. اهْتَمُّوا اهْتِمَامًا وَاحِدًا. عِيشُوا بِالسَّلاَمِ، وَإِلَهُ الْمَحَبَّةِ وَالسَّلاَمِ سَيَكُونُ مَعَكُمْ» (٢كورنثوس ١٣: ١١).

من الجدير ذكرُهُ هنا، أنَّ ما دفعَه إلى كتابة هذه الرِّسالة الثانية إلى كنيسة كورنثوس كان مشاكلَهم المُتراكمة واتّهاماتهم الشَّخصيَّة ضدّه، حتى حدود الإهانة والتحقير، إلا أنَّه أصَرَّ على مواجهتِهم بالحقيقة من دون أن يغفل عن إيمان الكثيرين منهم إذ وصفهم: «كنيسة الله التي في كورنثوس» (٢كورنثوس ١: ١). برأيكم هل تنمُّ هذه كلمات عن قسوَةٍ، بحسَبِ وَصفِ بعضٍ ممَّن لا يعرفونه؟ أم هي من نابعة من قلب رجلٍ مكسور لأجل المسيح؟ «لِذَلِكَ أُسَرُّ بِالضَّعَفَاتِ وَالشَّتَائِمِ وَالضَّرُورَاتِ وَالاِضْطِهَادَاتِ وَالضِّيقَاتِ لأَجْلِ الْمَسِيحِ. لأَنِّي حِينَمَا أَنَا

ضَعِيفٌ فَحِينَئِذٍ أَنَا قَوِيٌّ» (٢كورنثوس ١٢: ١٠).

الإيمان الإيجابيّ

تتضمَّن الإيجابيَّة بالمفهوم البسيط للعالم عدم التَّمييز والتسرُّع والجهل والاعتقاد الخاطىء بأنَّها تحمل معها النجاح فقط لمجرَّد وجودها. لكن بمفهوم الإيمان، فهذا أمرٌ بعيدٌ كلَّ البُعد عن الحقيقة. لكن بالمقابل، فإنَّ الإيمان الحقيقيَّ بالمسيح لا يستطيع إلّا أن يكون إيجابيًّا لأسباب عقائديَّة. إنَّ سيادة الله ووعودَه للذين يحبّونه تجعل من المؤمن الضَّعيف غالبًا ومنتصرًا، إذ تُسَخِّر الظروف الصَّعبة كلّها لخيره وبركته: «وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعاً لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ» (رومية ٨: ٢٨). هذه الإيجابيَّة مبنيَّة على فهم قصد الله وقدرته وحكمته. فعندما نتحلّى بها سوفَ نفيضُ سلامًا من لدنه، فنتمكَّن عندئذٍ من أن نعزّيَ الآخرين كما فعل شاول الطرسوسيُّ بعد لقائه بيسوع النّاصري.

مواجهًا الموت منفردًا، عالمًا باقتراب وقتِ الرَّحيل، ومع وجود خيبات أمل سبَّبَها بعض الأتباع، كتب إلى تلميذه تيموتاوس يقول: «أنت تعلم هذا أنّ جميع الذين في أسيّا ارتدّوا عنّي، الذين منهم فيجلّس وهرموجانس. ليعطِ الرَّبُّ رحمَةً لبيت أُنسيفورس، لأنَّه مرارًا كثيرة أراحني ولم يخجل بسلسلتي، بل لمّا كان في رومية، طلبني بأوفر اجتهاد فوجدني. ليُعطِهِ الرَّبُّ أن يجد رحمة من الرَّبّ في ذلك اليوم. وكلُّ مَن كان يخدم في أفسس أنت تعرفه جيّدًا» (٢تيموثاوس

١: ١٥ -١٨). لـم يُنسِـهِ وجعُـه ومَـن أسـاءَ إليـه محَبَّة أنسـيفورس له. لذلك شـكر بسـببه وطلـب مـن الرَّبّ رحمـة له ولبيتـه وكذلك لكلّ مـن يعرفهم تيموتاوس في أفسـس. فإنّنا لا نجد يأسًـا ولا مرارة في حياة هذا الإنسـان علـى الرّغـم مـن وجود أشـخاص ليسـوا علـى قدر الآمـال والتوقّعـات التي تمنّاهـا: «فِـي احْتِجَاجِـي الأَوَّلِ لَـمْ يَحْضُـرْ أَحَدٌ مَعِـي، بَلِ الْجَمِيـعُ تَرَكُونِي. لاَ يُحْسَـبْ عَلَيْهِـمْ» (٢تيموثـاوس ٤: ١٦).

إنّ فشـلَ الكثيرين ومعرفَةَ الرَّسـول بسـوء الأيَّام الأخيرة التي وصفها بـــ: «الأزمنـة الصَّعبَـة» لم تُغيّـرا إيجابيَّتَـه ولا ثقتَه بوجود أمنـاء يصلحون للخدمـة كتيموثـاوس الذي أوصاه قائلاً: «وما سـمعتَه منّي بشـهودٍ كثيرين، أودِعْـه أُناسًـا أُمنـاء، يكونون أكفـاء أن يُعلّمـوا آخرين أيضًـا» (٢تيموثاوس ٢: ٢). فهـو آمَـنَ بوجـود مَـن هـو كـفْءٌ للخدمـة مـن بعـده. إنَّ **الإيجابيَّة فـي حيـاة الإيمان هـي توقُّع تحقيـق وعود الله بسـرور**.

علَّـم الرَّسـول بولـس كُلّ مشـورة الله، البسـيطة والصَّعبـة، لكنَّه وجد دائمًـا أمـورًا مُشـجِّعة يُشـاركها مـع الآخريـن. إنَّ الخـادم أو الواعـظ الذي لا يجد شـيئًا مُشـجِّعًا وإيجابيًّا ليقوله بحجَّة التَّقوى والقداسـة والحساسـيَّة ضـدّ الخطيَّـة يُبالـغ ويُظهـر عـدم اكتمـال فهمِـه للنِّعمـة العجيبـة. كمـا أنَّ الخـادم أو الواعـظ الـذي يدَّعـي أنّـه لا يجـد مـن يشـاركُه الخدمـة بسـبب تدقيقِـهِ العقائـديِّ والسُّـلوكيّ، هـو إنسـانٌ مُرائٍ.

فالإيجابيَّـة هـي حاجة مهمَّة في التبشـير والتَّعليـم والتوبيخ والتقويم والتأديـب، لأنَّ كلمة الله فعَّالة ومشـيئَتَه صالحة وسـوف تتـمُّ بحذافيرِها.

فأمامنا في هذا الكتاب واحدٌ من أعظم الخدَّام الذين ذكرهم الكتاب المقدَّس، أكان من جهة التَّعليم أم الدَّعم أم التَّشجيع لخدَّام كثيرين، إذ شَهَد عن إيمان وإخلاص آخرين من الخدَّام وزملاء الخدمة وعمل الله، معترفًا بفضلهم عليه وحاجته إليهم.

الفصل

١٣

القيود

”يُقال إنَّ الأشجار في بعض البلدان تنمو بدون ثمر، والسَّبب أنّه لا شتاءَ عندهم.“

يوحنّا بنيان

قيودٌ وسلاسلُ وسجونٌ رافقت خدمة الرَّسول بولس، لا سيَّما في سنواتِهِ الأخيرة. فقد سبق هذا الرَّسول وحُذِّر من هذه القيود. عندما وصل إلى قيصريّة في طريقه إلى أورشليم، وكان في بيت فيليبّس المبشّر، كتب البشير لوقا يخبرنا بما حدث في ذلك الوقت: ”وبينما نحن مقيمون أيَّامًا كثيرة، انحدر من اليهوديَّةِ نبيٌّ اسمُه أغابوس. فجاء إلينا، وأخذ منطقة بولس، وربط يدَي نفسِه ورجلَيه وقال: هذا يقوله الرُّوح القدُس: الرَّجُل الذي له هذه المنطقة، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم ويسلّمونه إلى أيدي الأُمم“ (أعمال ٢١: ١٠ و١١). وهدفُ ما ذكره لوقا هنا هو أن يطلعَنا على أنَّ بولس أُعطيَ فرصة كي ينظرَ

مـن نافـذة المسـتقبل قبـل حدوثـه، فيـدركَ مشـيئة الـرَّبّ قبـل حدوثِهـا. ربَّمـا تفاجئُنـا ردّة فعـل بولـس حيـثُ وصَفَها لوقـا معبِّرًا بدقَّة عن مشـاعر وتصميـم وإصـرار رسـول النِّعمـة ومقـدام شـيعة الناصريِّين: "فلمّا سـمعنا طلبنـا إليـه نحـن والذيـن مـن المـكان أن لا يصعـدَ إلـى أورشـليم. فأجاب بولـس: مـاذا تفعلـون؟ تبكـون وتكسـرون قلبـي، لأنّـي مسـتعدٌّ ليـس أن أُربـط فقـط، بـل أن أمـوتَ أيضًـا فـي أورشـليم لأجـل اسـم الـرَّبّ يسـوع. ولمّـا لـم يقتنِعْ سَـكَتنا قائلين: لتكن مشـيئَةُ الـرَّبّ" (أعمـال ٢١: ١٢ و١٣).

الأيادي الآثمة

لـم تطـلِ المـدَّة التـي فصلـت كلام أغابوس عـن بولس كثيـرًا، إذ بعـد أيَّام قليلـة دخـل بولـس أورشـليم وتـمَّ إلقـاءُ الأيـادي عليـه بتهمـة التّعليم ضدّ موسـى والنَّامـوس والهيـكل: "فهاجـت المدينـة كلّهـا، وتراكـض الشَّـعب وأمسـكوا بولـس وجـرّوه خـارج الهيكل. وللوقـت أُغلقت الأبـواب. وبينما هـم يطلبـون أن يقتلـوه، نمـا خبـرٌ إلى أميـر الكتيبـة أنّ أورشـليم كلّها قد اضطربـت. فللوقـت أخـذ عسـكرًا وقـوّاد مئـاتٍ وركـض إليهـم. فلمّـا رأوا الأميـر والعسـكر كفّـوا عـن ضـرب بولـس" (أعمـال: ٢١: ٣٠ -٣٢).

مدينـة كبيـرة بكاملِهـا متعصِّبـة لتقليدهـا وللنَّامـوس ومتشـدِّدة لـه ولموسـى، تحـاول الانتقام مـن رَجُلٍ واحد: "حينئذٍ اقتربَ الأميرُ وأمسَـكه، وأمـر أن يقيّـد بسلسـلَتَين، وطفـق يسـتخبر: تُرى من يكون؟ ومـاذا فعل؟" (أعمـال ٢١: ٣٣). ومِـن تلـك اللَّحظـةِ بـدأت رحلـة القيـود الفعليَّـة لمـدّة سـنتين. فمِـن محاكمـة إلـى أخـرى، حتـى وصـل فـي رحلتِـهِ الأخيـرة إلى

روما. لقد تمَّ ربطُه بسلسلتين وبعسكريٍّ رومانيٍّ يتحرَّك معه أينما يذهب.

أن يُضرب الإنسانُ مباشرة على أيدي آخرين، لهو من أكثر الأمور التي قد تهينُه. لكن على الرّغم من هذه الإهانة وهذا الاستقحار، لم نرَ بولس يدافع عن نفسه، متذكِّرًا ما قاله يسوع عنه في سِفر الأعمال: "لأَنِّي سَأُرِيهِ كَمْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ مِنْ أَجْلِ اسْمِي" (٩: ١٦). **حتى عندما أُلقيت عليه أيادي الأَثمة، كان الرَّسول بولس مطمئِنًّا بين يدَي الله القدير**، ومستسلمًا لمشيئتِهِ الصَّالحة.

الشّهادة الباسلة

كان بولس في كلِّ احتجاجاته يقدِّم شهادَتَه، مُخبرًا كيف ظهر له يسوع على طريق دمشق، وعن ذلك النّور الحَقيقيّ الذي أبرق حوله وهو أفضل وأقوى من لمعان الشَّمس، ثمَّ ماذا قال له يسوع بشأن الإرساليّة التي أعدَّها له. كان اليهود بمعظمهم يكرهون الأمم كثيرًا، لذلك طالبوا بقتله، إذ ذكرَ أمامَهم أنّ الرَّبّ هو الذي أرسله بشكلٍ خاصٍّ إلى الأُمم . ففي إحدى محاكماته وهو ماثلٌ أمام الرُّؤساء والكهنة، أمرَ حنانيًّا رئيس الكهنة بضربه على فمه، فكانَ إذّاك رَدُّ بولس عليه غيرَ عالِمٍ بمكانتِه: "سيضربُك الله أيُّها الحائط المبيّض! أفأنت جالسٌ تحكمُ عليَّ حسب النَّاموس، وأنت تأمر بضربي مخالفًا للنّاموس؟" (أعمال ٢٣: ٣).

لقد تعرَّض بولس للظُّلم والإهانة من المؤتمنين على تحقيق العدالة. لكن بحكمةٍ ودرايةٍ بخلافاتهم العقائديَّة صرخ من وسط

الجموع الغاضبة معلنًا لهم أنَّه من المذهب الفريسيّ، وأنَّه يُحاكَمُ لأنَّه يؤمن بقيامة الأموات على عكس المذهب الصدّوقيّ. فحصلت منازعة كبيرة دفعَتْ بالأميرِ المسؤول عن حراستِهِ أن يخطفه من وسطهم ويأتي به إلى المُعسكر. وفي مفارقة غريبة، كانت الأيدي الرُّومانيَّة والأمَميَّة الوثنيَّة تحميه من أيدي إخوته الغاضبين. بعد معاناته تلك وإنقاذِهِ بهذه الطريقة الغريبة، حدث أنَّه في اللَّيلة التالية وقف به الرَّبّ وقال له: "ثِقْ يا بولس! لأنَّك كما شهدتَ بما لي في أورشليم، هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضًا" (أعمال ٢٣: ١١). يا لروعة الرَّبّ يسوع كيف وقفَ معه من جديد ليحييّ وقفتَه البطوليَّة، مشجِّعًا إيّاه على الشّهادة حتى في أصعب الظّروف. من أجل ذلك ثبت وتابع الخدمة لأنَّه آمن أنَّ من يقف بجانبه قادرٌ أن يكمِّل حتى النّهاية مهما صعُبت الظروف ومهما اشتدَّ الاضطهاد، ومهما ثقُلتِ الأغلالُ والقيود، ومهما كان الألم كبيرًا. **صحيح أنّ الإضطهاد يؤتي ألمًا، لكنَّه يحمل في طيّاتِهِ أيضًا تقديرَ الرَّبّ وتنويهَه.**

المحاكمات الكثيرة

في وسط الخلافات والاضطرابات التي سبَّبها وجود بولس، حاك بعضٌ من اليهود مؤامرة لقتله. لكنَّ ابنَ أخت الرَّسول عَلِمَ بها وأخبره، ليقوم هو بدوره بإطلاع الأمير الرّوماني المسؤول عنه على تلك المكيدة. على أثر ذلك تمَّ تهريبُه من أورشليم إلى قيصريَّة. هناك تلاقى مع فيليكس الوالي وفستوس خليفتِه والملك أغريباس وكلِّ الذين تناوبوا على استدعائه ليسمعوه مرَّاتٍ كثيرة، حتى انتهت المحاكمات

برفع دعواه إلى قيصر، إذ لم يجدوا عليه أمرًا مخالفًا للقانون. أقرَّ فستوس للملك أغريباس بقوله: "فلمّا وقف المشتكون حوله، لم يأتوا بعلّةٍ واحدةٍ ممّا كنت أظنّ" (أعمال ٢٥: ١٨). لكن على الرّغم من كُلّ هذا العداء من جانب اليهود وظلمِهم له وافتراءَاتهم الكاذبة ووقوفهم ضدَّه، يلفتُنا موقفُ هذا الشَّخص الحياديّ فستوس، إذ اعترف أنَّه لم يرَ أيَّة علّة على بولس، إلّا أنَّه أزعج اليهودَ بإيمانه بقيامة يسوع: "لكن كان لهم عليه مسائل من جهة ديانتهم، وعن واحدٍ اسمُه يسوع قد مات، وكان بولس يقول: إنّه حَيٌّ" (أعمال ٢٥: ١٩). ومن كلامه نستخلص أنَّ محور كلامِه جاءَ حول شهادة بولس عن قيامة يسوع وظهوره له.

وأمام الملك أغريباس، قدَّم مرَّة أخرى دفاعه الذي كان بمثابةِ شهادَةٍ عن إيمانِه، فقال له بشجاعة: "أتؤمن أيُّها الملكُ أغريباس بالأنبياء؟ أنا أعلم أنّك تؤمن. فقال أغريباس لبولس: بقليلٍ تقنعُني أن أصير مسيحيًّا!" (أعمال ٢٦: ٢٧ و٢٨). فهو لم يُحاجج ليدافع عن نفسه، بل ليبشِّر على كلِّ حال قومًا. شعر أغريباس أنّ بولس يدعوه أن يصبحَ مسيحيًّا بقليل من الكلام. على الأرجح، شعر هذا الملكُ بثقلِ الدَّعوة التي عرضها عليه هذا الرَّجُل المقيَّد الذي يقف أمامه، كما أحسَّ بقوَّتِها من خلال مشاعر الرَّجُل السَّجين. لقد استخدم هذ الأسيرُ القليلَ من الكلام لأنَّه كان يعلمُ يقينًا أنَّ الإقناع بالوسائل البشَريَّة لا يفتح القلوب ولا يربح النّفوس، إنَّما سبيل ذلك هو عمل الرُّوح القدُس الذي لا يحتاج للكثير من عنديَّاتِنا.

وهكذا انتهت المحاكمة بهذا البيان: "وانصرفوا وهم يكلِّمون

بعضهم بعضًا قائلين: إنّ هذا الإنسان ليس يفعل شيئًا يستحقّ الموت أو القيود. وقال أغريباس لفستوس: كان يمكن أن يُطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر" (أعمال ٢٦: ٣١ و٣٢).

بركات القيود

كانت القيود هي السَّبب التي جعلت بولس يذهب إلى روما، لكنَّها لم تمنعه من إكمال دعوته، ولا من المواجهة أو الدِّفاع عن نفسِه أمام الجميع. كما أنّها لم تغيّر بشارته وإنجيله، بل على العكس صار أشدَّ لجاجة في إعلانهما أمام كلِّ من يقف أمامه. فهو لم يقضِ الوقت يبكي ويصلّي لكي يُريحَه الرَّبُّ منها، بل أكمل خدمته بسببها. فهذه السَّلاسل والقيود لم تجعله يتذمَّرُ يومًا، ولم تمنعه عن الشُّكر البتّة، ولم تثنِهِ عن العبادة والفرح كما هو واضح في رسائله. لقد فهم أنّ القيود ليست عقابًا لا يستحقُّه، لكنّها وسيلة سوف توصله إلى روما لتتميم مشيئة الله. لهذا لم يخجل بها، بل على العكس لقدِ افتخر كونَها آلت أكثر إلى تقدّم الإنجيل. فهو افتخر بالأتعاب والضَّربات والسُّجون والميتات، إذ جعل من الضّعف افتخارًا ومن الألم لأجل المسيح اعتزازًا: "بما أنّ كثيرين يفتخرون حسب الجسد، أفتخرُ أنا أيضًا" (٢كورنثوس ١١: ١٨).

كان الرَّسول بولس يَعْلَم أنَّ هذه القيود ليست من اليهود، ولا بسبب الرُّومان، بل وراءَها يسوع المسيح. **من حرَّرَهُ المسيح لا يمكن أن يُقيَّد أبدًا، إنّما من هو مُكبّل بقيود الإنجيل لا تُعيقُهُ أيَّة سلاسل أو أغلال**. لقد آمن الرَّسول بولس بسلطان الله المطلق على كلِّ الظّروف،

إذ قال في رسالته إلى أهل أفسس: "الذي لأجله أنا سفيرٌ في سلاسل، لكي أجاهر فيه كما يجب أن أتكلّم" (٦: ٢٠) .

لكنَّ فخر الرَّسول بتلك السلاسل واعتزازه بقيود السّجون وأغلالها، أفقده صحَّته، بحيث كان يُزَجُّ في غَيَاهِبها، وسط ظروف قاسية أقلّها الرّطوبة العالية، ورائحة العفن، وتعرُّضه للجوع والعطش، وتناوله الطعام الرَّديئ النّتِن، والعتمة الشَّديدة التي أتعبت عينيه، ناهيكم عن ضغط السَّلاسل التي كانت تحفر في جسده آثارًا فاحتَمَلها فرِحًا، إلّا أنّ تلك السلاسل والمعاناة الطويلة أربَحَته نفوسًا كثيرة.

يقول بعض الباحثين في سيرة بولس أنّ كلّ جنديٍّ تمَّ ربطه مع بولس، كان يأكل ويشرب معه حتى يصبحَ مسيحيًّا. فأثناء القيود استخدمه الرّوح القدُس لكتابة أعظم الرَّسائل التعليميَّة للكنيسة في ذلك الزَّمن وصولًا إلى كنيسة اليوم. كانت هذه القيود فرصة لكبح الجسد وإطلاق العنان للرّوح القدُس في حياته، حتى إنَّ هذه القيود مع أنَّها أفقدته شهيَّتَه للطّعام الفاسد، لكنَّها لم تُفقده شهيّتَه لدراسة الكلمة، إذ طلب من تيموتاوس في أيَّامه الأخيرة، ومن سجنه بالتَّحديد أن يُرسل إليه الرّقوق. لقد كانت هذه القيود رفيقتَه إلى روما طيلة سنتين وأكثر، لذلك استطاع أن يقول مع يوسف: "أنتم قصدتم لي شرًّا، أمّا الله فقصد به خيرًا ليُحييَ شعبًا كثيرًا."

سفيرٌ في سلاسل

على الرّغم من رفض اليهود وكرهِهم لبولس ومقاومتِهم له بشكل

خـاصّ وعنيـف، تثقَّـل قلـب بولس بالحـزن الشَّـديد عليهم بسـبب ضلالهم وجهلهـم وامتـلأ غيـرةً وحماسًـا لخلاصهـم: "أقـول الصِّدق في المسـيح، لا أكـذب، وضميـري شـاهد لـي بالـرُّوح القـدُس: إنّ لي حزنًـا عظيمًـا ووَجَعًا فـي قلبـي. فإنّـي كنـت أوَدُّ لو أكـون أنا نفسـي محرومًا من المسـيح لأجل إخوتـي أنسـبائي حسـب الجسـد" (رومية ٩: ١ -٣).

إنَّ محبَّةَ بولس الخاصَّة لأنسـبائِهِ لا تقبل الشَـكَّ أو الارتياب، لا سـيّما لمـن يحفظون شـرائع موسـى، من هـم أصحاب الوعود. لكنَّ الأمـر المُحَيِّر هنـا، أنّ الذيـن أحبّهـم بولـس أكثر مـن الجميع، رفضـوه بالمقابـل وأرادوا قتلـه بإلحـاح. فهـم أنفسـهم مَـن أخرجـوا المسـيح إلـى خـارج أورشـليم ليُصلـب، وكذلـك فعلـوا باسـتفانوس إذ رجمـوه مـن دون رحمـة. أمّـا معانـاة بولـس وضربُهـم لـه، فـكان بإيعـازٍ من إبليـس، الذي حـرَّض الجمع الغفيـر. وإن صـحَّ التعبيـر، كان بولـس المطلـوب رقـم واحـد فـي ذلـك الحيـن مـن عالـم الأرواح الشـرِّيرة، إذ انَّـه مـا بـرِحَ يهاجمُ مملكتَهـم مرارًا كثيـرة منتصـرًا وغالبًـا بربحـه النّفـوس للمسـيح. ففـي إحـدى المناسـبات قـال واحـدٌ مـن الأرواح الشـرِّيرة لمن حـاول مقارعتـه في محاولـةٍ لتقليدِ بولـس: "أَمَّـا يَسُـوعُ فَأَنَـا أَعْرِفُـهُ وَبُولُـسُ أَنَـا أَعْلَمُهُ وَأَمَّـا أَنْتُمْ فَمَـنْ أَنْتُمْ؟» (أعمـال ١٥:١٩). **باسـتطاعة الشَّـيطان بسـهولةٍ أن يسـتخدم المتدَيِّنيـن الغيوريـن لمحاربـة الإيمـان وإيـذاءِ المؤمنيـن**. فهـؤلاء المتديّنيـن هـم أدوات طيِّعـة بيـن يدَي إبليس، إذ نراهم يرتكبون أشـنع الخطايا وأبشـعها باسـم التديُّـن. لهـم صـورة التّقوى ولكنَّهـم منكـرون قوَّتَهـا، وبعيدون عن الـرَّبّ ومنقاديـن بأهوائهم.

هكـذا تحَقَّقـت النبُـوَّة التـي قالهـا أغابـوس فـي أنّـه سـيتمُّ تسـليم بولـس لأيـدي الأُمـم على يـدِ اليهـود. بالتأكيد تحقّقـت بحذافيرها لتُشـيرَ إلـى سـلطان اللـه علـى كلّ شـيء. هـذا السُّـطان اختبـرَه أيّـوب فـي العهد القديـم، إذ اعتـرف يقـول: «قَـدْ عَلِمْـتُ أَنَّكَ تَسْـتَطِيعُ كُلَّ شَـيْءٍ وَلاَ يَعْسُـرُ عَلَيْـكَ أَمْـرٌ» (أيـوب ٤٢: ٢).

أتظنّون أنَّ سـفير النّعمة ورسـولها كان ليصير كذلك من دون قيود أو سلاسـل؟! أيمكـن أن يصيـر أحدهـم خادمًا بحقٍّ من دون تعـب أو عرقٍ أو تكلفـةٍ أو تضحيـة؟! ربَّمـا يدَّعـي بعضُهـم رَغبتَهم فـي الخدمة سـاعينَ إلى الخدمـة السَّـهلة، لكـنَّ رغبـة الرَّسـول بولس وشـغف قلبه كخادم ورسـولٍ حقيقـيٍّ للـرَّبّ كان مـا قالـه لأهـل فيلبّـي: "لأعرفه، وقـوَّة قيامته، وشـركة آلامـه، متشَـبِّهًا بموته" (٣: ١٠).

فلـو كان التخلُّـصُ مـن القيـود أولويَّـة بولـس، لـم يكن ليفهَـمَ أهميَّة وجودهـا فـي تتميـم خدمته.

لا خطـأ فـي أن نطلـب مـن الـرَّبّ أن يخلِّصَنا ويريحَنا مـن أيّ ضيقٍ أو شـدّة، لكن علينا أن ندركَ أنَّ احتمالَ إنقاذِنا أو مَنحِنا قدرة على الاحتمال واردان بالتّسـاوي، كمـا ربَّمـا يسـتخدم الـرَّبّ هـذه المعانـاة وهـذا الضِّيق لغـرضٍ مـا فـي تتميم مشـيئته. في جميع الأحـوال، علينا أن نكـون واثقين أنَّـه سـيكون معنـا، متعاطفًـا ومقوِّيًـا ومشـدِّدًا: "فـي كلّ ضيقهـم تضايـق، وملاك حضرتـه خلّصهـم. بمحبَّتِـه ورأفتـه هـو فكّهـم ورفعهـم وحملهـم كلَّ الأيـام القديمـة" (إشـعياء ٦٣: ٩). إنّ اتّبـاع يسـوع ليس مشـروع مُتعَةٍ

دنيويَّـةٍ أو رفاهيـة جسـديَّة، بـل هـو جهـاد ومـوت كلَّ يـوم: "إن أراد أحدٌ أن يأتـيَ ورائـي، فلينكـرْ نفسـه ويحمل صليبَـه كلّ يومٍ ويتبعْنـي" (لوقا ٩: ٢٣). إنَّ القيـود البشَـريَّة سـتزول، أمَّـا الاتّحـاد مـع المسـيح فسـيَبقى إلـى الأبد.

كانـت خدمـة نـوح أنَّه بنى فُلـكًا لنجاتِهِ ومن معه، أمَّـا ابراهيم فخرج مـن أرضـه ليعبُـدَ اللـه الحقيقـيّ، وموسـى قـاد الشَّـعب واسـتلم النَّاموس، أمّـا إيليَّـا فتنبّـأ، والمعمـدان مهَّـد الطريـق أمـام الذي سـيأتي قدَّامـه، لكنَّ هـذا السَّـفير اسـتحَقَّ أن يكـون رسـولَ الأُمـم واللّاهوتيَّ المسـيحيَّ الأوَّل، وأسـير محبَّـة يسـوع ومشـيئته، وناقـلَ فكرِهِ إلـى العالـم: "لأَنَّهُ مَـنْ عَرَفَ فِكْـرَ الـرَّبِّ فَيُعَلِّمَـهُ؟ وَأَمَّـا نَحْـنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِـيحِ" (١كورنثـوس ٢: ١٦).

الفصل

١٤

الموت

”لا يفاجئُ الموت المؤمنَ البتّة: فلا ضيفَ على غفلةٍ لمن مائدته حاضرة دائمًا.“

جورج سوينوك

وُضِع الرَّسول بولس في إقامةٍ جبريّة لسَنَتين، ينتظر خلالها المحاكمة الأخيرة، وكان يتابع في أثناء ذلك رسالتَه وخدمته. لكنَّ البشير لوقا لا يخبرُنا في سِفر أعمال الرُّسل شيئًا عمَّا حدَث معه بعد هاتين السَّنَتَين، وعليه نجهل ما حصل معه. لكن إن عدنا إلى الرَّسائل التي كتبها الرَّسول بولس، وإلى التُّراث المَسيحيّ الموجود بين أيدينا، لأدركنا أنَّ المحاكمة تمَّتْ بعد انقضاء السَّنَتَين، وتحديدًا كما وعدَه الرَّبّ وقف أمام قيصر. على الأرجح، كان نيرون هو ذلك القيصر، والذي يُعتَبَر أشَرَّ القياصرة الذين تعاقبوا على المملكة الرُّومانيَّة. يتَّضحُ لنا بحسب الرَّسائل والتّاريخ المدوَّن أنّه قد تمَّ الإفراج عن بولس، فقام بزيارة

أسبانيا. في رسالته الثانية إلى تيموتاوس والتي كتبها قبل موته، قال عن هذا الاختبار: "في احتجاجي الأوّل لم يحضر أحدٌ معي، بل الجميع تركوني. لا يُحسَب عليهم. ولكنّ الرَّبّ وقف معي وقوّاني، لكي تُتمَّ بي الكرازة، ويسمعَ جميع الأُمم، فأُنقذتُ من فَمِ الأسد" (٤: ١٦ و١٧).

وبما أنَّه تكلّم عن احتجاجه الأوّل، فهذا يُشير إلى حصول أكثر من احتجاج واحد. كما تكلّم عن الأسد في احتجاجِه الأوَّلِ "فم الأسد"، مشيرًا على الأرجح إلى تلك الحقبة التي كانوا يقدِّمون فيها المسيحيّين المحكوم عليهم إلى الأسود الجائعة. كما من الممكن أيضًا أنّه قَصد بتعبير "فم الأسد" نيرون البطّاش نفسَه، أو ربَّما الضّيقة المُخيفة التي مرَّ بها بشكلٍ عامّ. مهما يكن من أمر، يظهر أنّه أُنقِذَ في احتجاجِهِ الأوّل ليكمل رسالته. إلّا أنَّ حرِّيتَه لم تدُمْ طويلاً، إذ تمَّ القبض عليه مجدَّدًا، ليوضع في سجنٍ مُظلمٍ كان آخر مقرٍّ له قبل مواجهته الموت.

استعداد جدّيّ

في رسالته الثانية إلى تلميذه تيموثاوس كتب يخبرُه قائلاً: "ديماس قد تركني إذ أحَبَّ العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكي، وكريسكيس إلى غلاطية، وتيطس إلى دلماطيّة. لوقا وحده معي. خذْ مرقس واحضرْهُ معك لأنَّه نافع لي للخدمة" (٤: ١٠ و١١). يبدو هنا وكأنَّه يوجِّه رسالة عاطفيَّة إلى تيموثاوس، يُعبِّر فيها عن آلام الوحدة في مواجهة العدوّ الأخير الشَّرس، الموت.

فمن تمتَّع برفقة شرَكاء كثيرين في الخدمة، وجد نفسَه الآن

وحيدًا. لم يذكر الوحيُ المقدَّس سبب تراجعهم أو انشغالهم، أهو عن خوفٍ أم لأجل أمور أخرى، لكن لا فرق، إذ السَّبب لا يغيِّرُ واقع ابتعادهم عنه وشعوره بالوحدة. لكنَّ اللّافت، أنَّه لم يلمْ أحدًا من هؤلاء، لأنَّ وقوف الرَّب معه كان كافيًا لتقويته وتشديده. أمّا أنَّه ذكرهم بالأسماء لتيموثاوس فهو بسبب محَبَّتِه الثابتة لهم، إذ قال: "لا يُحسَب عليهم." لقد ظهرت قوَّة الله من خلال عدم حاجته لمساندَةٍ أخرى سواه. **فعندما يحضُرُ المُعلِّم، لا حاجة بعد لأيِّ تلميذ.** لا بدَّ أنّه اختبر ما يقوله المزمور الثالث والعشرون: "أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي" (٤).

كتب في الرِّسالة نفسِها يقول: «فإنّي أنا الآن أُسكب سكيبًا، ووقتُ انحلالي قد حضر» (٤: ٦). فهو لم يُفاجَأ ممَّا هو قادم عليه، ولم يكن ينتظر أن تُفَكَّ قيوده، ذلك لأنَّه توقَّع المكافأة القريبة، لأنَّه علِمَ باقتراب النِّهاية: «قد جاهدتُ الجهادَ الحسن، أكملتُ السَّعي، حفظتُ الإيمان، وأخيرًا قد وُضع لي أكليل البرّ، الذي يهَبُه لي في ذلك اليوم، الرَّبّ الديّان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذين يُحبّون ظهورَه أيضًا» (٤: ٧ و٨). لم يخَفِ الموت لأنَّه استعدَّ له وتوقَّعَه على رجاء. وإذ نتأمّل بما كتبَه في رسالة فيلبّي، ندرك أنَّه اشتاق إلى ساعة الرَّحيل واثقًا بأنَّه غلب الموت في المسيح إذ قال: «لي اشتهاءٌ أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جدًّا» (١: ٢٣). لقد تمنّاه قبل أن يواجِهَه، وواجهه من دون خوفٍ لأنَّه كان مُستعدًّا. فقد أدرك دورَه بالتَّمام وعرف هويَّتَه من يكون ووثق بمصيره. من أجل ذلك تحضَّرَ للرَّحيل، إذ عرف أن مهَمَّتَه وخدمتَه على هذه الأرض على وشك الانتهاء، وسيُطوى هنا

الفصلُ الأخير من حياته قريبًا، ليُفتحَ هناك في بيته الأبديّ.

غريبٌ أمرُ هذا الرَّجُل! إذ عندما كان قريبًا من الموت لم ينظر بحزنٍ إلى حياته، لم يتحَسَّرْ على الآلام التي عاناها، والأيَّام التي ضاعت في كدٍّ وتعب وأسفار وأصوام، بل رأى فيها الجهادَ في الخدمة، وحفظَ الرَّبّ، والانتصارَ على الشَّيطان، والغلبة في ربح النّفوس. **إنَّ الاستعداد للموت لا يقتصر على الاستعداد للتَّرك والتَّخلِّي، بل يشمل الاستعداد للقاءٍ واستقبال المكافآت...** ولا عيب في ذلك البتّة.

التمسُّك بالنِّعمة

إنَّ الكلمات الواردَة في رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس، لهي من أجمل ما كتب عن اليقين والرَّجاء بالرَّبّ: «وأخيراً قد وُضع لي أكليلُ البرّ، الذي يهبُه لي في ذلك اليوم الرَّبُّ الديّان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبّون ظهوره أيضًا» (٤: ٨). فهو وثِق أنَّه حصل على إكليل البرّ بسبب هبَةِ الرَّبّ له، وليس بسبب أتعابه وأصوامه وتضحياته. لقد كان متمسِّكًا بالنِّعمة أيُّما تمسُّك، لا في حياته فقط بل حتى في مماته. لم يكنْ جهادُه وسعيُه وإكماله للعمل سببَ برِّه، بل وحدها ذبيحة المسيح التي وهبَتْه الخلاص والتَّبرير.

كثيرًا ما يتسلَّل شعورٌ خادع إلى نفوسنا بأنّنا أبرارٌ بسبب بعض الأمور الصَّالحة التي نقوم بها. لكن وجبَ على كلِّ مؤمن الاحترازُ هنا من أمرَين بهذا الخصوص. الأوَّل هو مقارنة نفسي بالآخرين باعتبار أنَّني أفضل من سواي بسبب عمَلِ ما قمتُ به. وهذا ما فعله الفرّيسيُّ

الـذي أكَّـد المسـيح أنَّه لـم يُبرَّر عندما صلّـى: «أَنَا أَشْـكُرُكَ أَنِّي لَسْـتُ مِثْلَ بَاقِـي النَّـاسِ الْخَاطِفِيـنَ الظَّالِمِيـنَ الزُّنَـاةِ وَلاَ مِثْـلَ هَـذَا الْعَشَّـارِ» (لوقا ١٨: ١١). والثانـي هـو مـا قالـه الإبـنُ الأكبـر لأبيـه عنـد عـودة أخيـه الضَـالّ: «هَـا أَنَـا أَخْدِمُـكَ سِـنِينَ هَـذَا عَدَدُهَـا وَقَـطُّ لَـمْ أَتَجَـاوَزْ وَصِيَّتَكَ وَجَدْيـاً لَمْ تُعْطِنِـي قَـطُّ لأَفْـرَحَ مَـعَ أَصْدِقَائِـي» (لوقـا ١٥: ٢٩). فهو اعتبر أنَّه يسـتحِقُّ المكافـأة بسـبب ولائـه، بعكس أخيه الذي لا يسـتحِقُّ شـيئًا بسـبب ضلاله. لكـنَّ الحُكـمَ النّهائـيَّ هـو لكلمـة الـرَّبّ، إذ لا تبريـر إلا مجَّانًـا بنعمـة الله. كتـب بولـس لأهـل أفسـس: «لأَنَّكُـمْ بِالنِّعْمَـةِ مُخَلَّصُـونَ، بِالإِيمَـانِ، وَذَلِـكَ لَيْـسَ مِنْكُـمْ. هُـوَ عَطِيَّـةُ اللـهِ» (٢: ٨ وبهذه الآية الرَّائعة يشـجّعُنا الرَّسـول أن نتمسَّـكَ بهـذه النِّعمـة أكثـر فأكثـر وخصوصًـا بعـد الإيمـان، وبعـد أي عمَـلٍ صالـحٍ نقـوم بـه، وإلا نكون قد سـقطنا منها. فعند مواجهَـةِ الموت لا يَقيـنَ ناتجًـا عـن الأعمـال الصّالحَـة البتّة، بـل كلُّ اليَقين هو فـي نعمة الله التـي هـي عطيَّة مـن لدُنه.

كان بولـس يـدرك يقينًـا أنّ نعمـة المسـيح هـي التـي اختارتـه وهـي التـي خلَّصتـه وأعطتـه قـوَّةً للعمـل، وبفضلهـا سـوف ينـال إكليـل البـرّ في النِّهاية. لم يتمسّـك بانجازاته وكان مسـتعدًّا ألّا يعتمد عليها مع أنَّها كانت كثيـرة. فقـد صَـبَّ اهتمامه فـي أن تُظهر خدمتُـه عملَ النِّعمة التـي يتمتَّعُ بلمعـانِ حضورهـا فـي حياته. فعندما أراد تقييم نفسـه، قـال: «لأنّي أصغر الرُّسـل، أنـا الـذي لسـتُ أهـلًا أن أُدعـى رسـولًا، لأنّـي اضطَهَـدتُ كنيسـة اللـه. ولكـن بنعمـة اللـه أنـا مـا أنـا، ونعمتـه المعطـاة لي لـم تكـن باطلة، بـل أنـا تعبـتُ أكثـر منهـم جميعهـم. ولكـن لا أنـا، بـل نعمـة اللـه التـي معـي» (١كورنثـوس ١٥: ٩ و١٠). عندمـا نواجه العـدُوَّ الأخير أي الموت، لا

شَـيءَ يطمئِنُنـا ونحـن محمَّليـن بالسَّـقطات والـزَّلّات والتعدّيات والفشـل، إلّا وجـود النِّعمـة فـي حياتنا.

التمسُّك بالحَقّ

فـي الرِّسـالة الثانيـة الوداعيَّـة التـي كتبهـا إلـى تيموثـاوس شـدَّد الرَّسـول علـى أهميَّـة التَّعليـم الصَّحيـح: «أنـا أناشـدك إذًا أمـام اللـه والـرَّبّ يسـوع المسـيح، العتيـد أن يديـنَ الأحيـاءَ والأمـوات عند ظهـوره وملكوتـه: اكرُزْ بالكلمـة. اعكـف علـى ذلك فـي وقت مناسـب وغير مناسـب. وبِّـخ، انتهرْ، عِـظ بـكلّ أنـاة وتعليـم. لأنَّـه سـيكون وقـت لا يحتملـون فيـه التَّعليـم الصَّحيـح، بـل حسـب شـهواتهم الخاصّـة يجمعـون لهـم معلِّمين مسـتحكّة مسـامعهم، فيصرفـون مسـامعهم عـن الحـقّ، وينحرفـون إلـى الخرافـات. وأمّـا أنـت فاصـحُ فـي كلّ شـيء. احتمـل المشـقّات. اعمـل عمَلَ المبشّـر. تمَّـم خدمتـك» (٤: ١ -٥). بالحقيقـة، هـذا مـا كان يشـغل بـال بولـس قبل فتـرة قصيـرة مـن موتـه! فهـو لـم ينطـق بتلـك الكلمـات مـن علـى منبـر الوعـظ ولا فـي اجتمـاعٍ انتعاشـيّ، بـل كان يخطّهـا فـي السِّـجن، مـكان تواجـده الأخيـر قبـل المـوت. لقد بقـي متمسّـكًا بالحـقّ، ولم ينقلِـبْ إلى شَـخصٍ غيـر مبـالٍ علـى الرّغم من تلـك الظـروف الصَّعبة والقاسـية، حيث كان يعانـي مـن الألـم والبرد وما تحمِلُه السُّـجون من عذاباتٍ وقسـوَة. **من يُحـبُّ المسـيح يُحـبُّ الحَـقّ**. لكـن مـا هو الحَـقّ؟ أجـاب يسـوعُنا الحبيب عـن هـذا السُّـؤال بقوله: «أَنَا هُـوَ الطَّرِيقُ وَالْحَـقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْـسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَـى الآبِ إِلاَّ بِـي» (يوحنـا ١٤: ٦).

الثقة بمحَبَّةِ المسيح

لقد كان واثقًا أنَّه سيأخذ الأكليل من المسيح مع جميع الذين يحبّون ظهوره أيضًا. فقد عبَّر في لحظاته الأخيرة عن محبّتِه للمسيح، إذ من دون هذه العلاقة الشَّخصيّة معه سيغدو الموتُ وحشًا مرعبًا. كتب قبلًا إلى أهل رومية يقول: «من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضًا، الذي هو أيضًا عن يمين الله، الذي أيضًا يشفع فينا. من سيفصلنا عن محَبَّة المسيح؟ أشدَّةٌ أم ضيقٌ أم اضطهاد أم جوعٌ أم عري أم خطرٌ أم سيف؟ كما هو مكتوب: أنَّنا من أجلك نُمات كلّ النّهار. قد حُسبنا مثل غنم للذَّبح. ولكنّنا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبّنا. فإنّي متيقّنٌ أنَّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوّات، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا علوَّ ولا عمق، ولا خليقة أخرى، تقدر أن تفصلنا عن محبَّةِ الله التي في المسيح يسوع ربِّنا» (٨: ٣٤ -٣٩).

وها قد جاءَ الامتحان، وتبيَّنَ فعلًا أنَّ لا شَيءَ استطاع أن يفصل بولس عن محبَّة المسيح له، حتى ولا الموتَ نفسَه. فثقتُه كانت كبيرة بمن التقى به يومًا على طريق دمشق، ذاك الذي حمل صليبه وسار على درب الجلجثة ليصنع له خلاصًا. كتب هذه الكلمات الرَّائعة التي تنمُّ عن الثقة المتجذِّرة في إيمانه: «لهذا السَّبَب أحتملُ هذه الأمور أيضًا. لكنّني لست أخجل، لأنّني عالم بمن آمنت، وموقنٌ أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم» (٢تيموثاوس ١: ١٢). فمحَبَّة بولس للمسيح ليست سوى صدى عمل محَبَّةِ المسيح الفائقة الوصف، ورَدَّةُ

فعلٍ على عمله الكفّاريِّ على الصَّليب. كتب يوحنَّا في رسالته الأولى: «نَحْنُ نُحِبُّهُ لأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلاً» (٤: ١٩)، أي انَّ محَبَّة المسيح هي مصدر وسببُ حبّنا له. **هذه المحبَّة نفسُها مدَّت بولس بالقوَّة لكي يحتمل المشقّات، وجعلته يتحلّى بالشَّجاعة لكي لا يخجل.** إن ضَعُفت محَبَّتُنا له، فمحبَّتُه تبقى قويَّة، لا تضعف.

الرَّحيل المهيب

لم تكن لحظاتُ رحيل بولس الرَّسول التاريخيَّة مُخيفة، بل مَهيبة. مكتوب "عَزِيزٌ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ مَوْتُ أَتْقِيَائِهِ" (المزمور ١١٦: ١٥). برأيكم، هل بكى يسوع على موت بولس كما بكى على موت لعازر؟ هل حضر بقربه كما كان حاضرًا عند موت موسى ودفنه؟ بالطبع، لا نملكُ الجوابَ الأكيد، ولكن ما نعلمه هو أنَّ رحيل أعظم رسول، ما كانَ إلّا رحيلاً مهيبًا لأنَّ محَبَّة سيّدِه له كانت كبيرة.

لا شَكَّ أنَّ الرَّهبَة والمهابة ترافقان مشهد الموت، لكن في الوقت نفسِه فإنّ الجمال والرَّوعة يواكبان اللّقاء بيسوع. من الطبيعيّ أنَّ الرَّسول توقّع أنّ النّاصريَّ سيرافقه وهو ذاهب إلى الموت، إذ قال: "وسينقذني الرَّبُّ من كلِّ عمَلٍ رديْءٍ ويخلّصُني لملكوته السَّماويّ. الذي له المجد إلى دهر الدّهور. آمين" (٢تيموثاوس ٤: ١٨). كان واثقًا ومؤمنًا يقينًا أنَّه ذاهب إلى الملكوت السَّماوي حيث سيلتقي بالمسيح. ولعلَّ الذِّكرى عادت إلى ذهنه وهو يسير نحو حتفِه عندما كان واقفًا يحفظ ثياب الذين كانوا يرجمون إستفانوس، إذ سمِعَه يقولُ أنّه يرى

السَّماء مفتوحَةً وابنَ الإنسان قَائِمًا عَنْ يَمِينِ الله، فتمنَّى أن يحدث الشَّيءُ نفسُه معه.

كانت الطَّريقة الرّومانيَّة لتنفيذِ عقوبةِ الإعدام في مواطنٍ رومانيٍّ هي بأن يؤخذ في اللَّيلِ من زنزانتِهِ مع فرقة من العسكر إلى خارج أسوار روما، حيث تُنصبُ خيمةٌ ويوضع فيها وحدَه حتى الصَّباح. ثمَّ يُخرجونه ويخلعون عنه ثيابه، ويُوقِعونَه جاثيًا على ركبَتَيه ويقطعون رأسَه بعيدًا عن المدينة. وحدهما بولس وسيّدُه يعلمان ما حصل في ليلة الإنتظار تلك. لكنَّنا على يقينٍ أنَّ فاديَه ومخلّصَه الذي لم يفارقه يومًا، لن يفارقه في لحظاتِ مماته.

لن ينسى التاريخ ذاكَ الذي دوِّنَتْ فيه أعظمُ الفصول.

الفصل

10

ربح وخسارة

"إنَّ بولس يُذكّرُنا كيف قُصدَ للحياة أن تُعاش، وكيف يُمكن لإنسان أن يُضفيَ على الموت، مهما كان سببُه، كرامَةً وغاية."

تشارلز سويندول

كانت المُعادلة بسيطة ومدروسة جيِّدًا لدى هذا الرَّسول؛ ألا وهي خسارة كُلّ شيء مقابل ربح المسيح. كتب من السِّجن في رسالته إلى أهل فيلبّي يقول لهم: "بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ" (٣: ٨). ففي وسط حياةٍ صاخبة، وَجَدَ هذا الرَّجُل اللؤلؤة الكثيرة الثَّمَن التي تستحِقُّ أن يبيعَ كلَّ ما يملكُهُ ويشتريها.

وخلاصة الأمر أنَّ بولس وَجَدَ إلهًا يستطيع أن يفرَحَ به حتى وهو

في السِّجن. يفرح به حتّى عندما يسمع الأخبار المُحزنة عن حال الكنيسة في الخارج والهجومات التي تتعرَّض لها من اليهود كما من الأمم أيضًا. إنّ آلهة النَّاس التي يصنعونَها لا ترى ولا تسمع، وبالتَّالي لا تعطي القلب نذرَةً من الفرَح أو الرَّجاء، الأمر الذي يفضح زَيفَها. أمَّا الفرَح الذي اختبره هذا الرَّسول، حتى وهو في ظلمات السِّجن، لدليلٌ واضح أنَّ المسيح الذي اختبرَه في حياتِه هو حيٌّ فيه بقوَّة. فمن وراء القضبان أوصى المؤمنين بالقول: "اِفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ وَأَقُولُ أَيْضًا افْرَحُوا" (فيلبي ٤: ٤). كيف لا يفرح بمن بادر واقتحم حياته بمحبَّتِه، كيف لا يبتهج بمن ظهر له على نحوٍ خاصّ واختاره ليحمل اسمَه ويكون إناءً مختارًا يحمل اسمه لشعوب كثيرة؟ كيف لا يُسرّ بمن أحبَّه ومات لأجله؟ سأل مرَّةً يسوعُ الجموع حوله قائلًا: "مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟" (متى ١٦: ٢٦). وهذا طبعًا يتضمَّن خسارة الفرح أيضًا.

لقد وَجَدَ هذا الرَّسول أيضًا إلهًا يستطيع أن يتَّكل عليه بالكليَّة. فقد كان هو بشكلٍ خاصٍّ صاحب اختبار جدّيٍّ في محاولة إطاعة النّاموس للحصول على البِرّ. تلك المحاولات التي باءَتْ كلّها بالفشل، حتى صرخ مرَّةً يقول: "وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟" (رومية ٧: ٢٤). فلو كان هناك احتمال بأن يتّكل أحدُهم على الجسد لخلاص نفسه، فالرَّسول بولس هو بالأولى: "مِنْ جِهَةِ الْخِتَانِ مَخْتُونٌ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ، مِنْ جِنْسِ إِسْرَائِيلَ، مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ، عِبْرَانِيٌّ مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ. مِنْ جِهَةِ النَّامُوسِ فَرِّيسِيٌّ. مِنْ جِهَةِ الْغَيْرَةِ مُضْطَهِدُ الْكَنِيسَةِ. مِنْ جِهَةِ الْبِرِّ الَّذِي فِي النَّامُوسِ بِلاَ لَوْمٍ" (فيلبي ٣: ٥ و٦).

لكـن علـى الرّغـم مـن كلِّ هـذه الامتيـازات والمكانـة التـي كان يتمتّع بها، اعتـرف يقـول لأهل كنيسـة فيلبّي "إِنِّي أَحْسِـبُ كُلَّ شَـيْءٍ أَيْضًا خَسَـارَةً... وَأَنَـا أَحْسِـبُهَا نُفَايَـةً لِكَـيْ أَرْبَـحَ الْمَسِـيحَ" (فيلبي ٣: ٨).

وإذا أردنـا تعريـف معنـى الإتّـكال علـى الجسـد، فهـذا يعنـي الإتّكال علـى أيّ شَـيْءٍ نملِكُـه مِثـل الإمتيـازات الدِّينيَّـة، أو القُـدرات البشَـريَّة، أو ربَّمـا الإنجـازات، والفرائـض الدِّينيَّـة وكُلّ تلـك الأعمـال التـي نعتبرهـا صالحـة. فـلا بـرَّ يعلـو علـى بـرّ المسـيح، ولا بـرَّ يُخلِّص سـوى برِّ المسـيح. كمـا لا يأتينـا كمكافـأة، بـل هـو هبة مجَّانيَّـة بالإيمان فقـط: "وَأُوجَـدَ فِيهِ، وَلَيْـسَ لِـي بِـرِّي الَّـذِي مِـنَ النَّامُوسِ، بَـلِ الَّـذِي بِإِيمَانِ الْمَسِـيحِ، الْبِـرُّ الَّذِي مِـنَ اللـهِ بِالإِيمَـانِ" (فيلبي ٣: ٩). لقد كان الرَّسـول واضحًا في رسـالته إلى رومية عندمـا كتب في هذا السّـياق يقـول: "إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَـأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْـدُ اللـهِ. مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًـا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُـوعَ الْمَسِـيحِ" (رومية ٣: ٢٣ و٢٤). هـذا هـو الاسـتنتاج الذي وصل إليه والـذي يَظهر جليًّا في كُلِّ رسـائِلِه: "إِذاً نَحْسِـبُ أَنَّ الإِنْسَـانَ يَتَبَـرَّرُ بِالإِيمَـانِ بِـدُونِ أَعْمَـالِ النَّامُوسِ" (رومية ٣: ٢٨).

يوجـد سـؤالٌ خطيـرٌ يسـأله كثيـرون مـن النَّـاس: **إذا كانـت أعمـال النَّامـوس المُقـدَّس لا تُبـرِّر، فأيَّـة أعمـال أخـرى تسـتطيع أن تُبـرِّر؟** والجـواب، هـو مـا نجـده فـي كلمـة اللـه في هـذا الشّـأن، أن لا خـلاصَ إلّا بالنّعمـة المجَّانيَّـة، ولا افتخـار إلا بالمسـيح.

وجـد هـذا الرَّسـول إلهًا يسـتطيع أن يفرح بـه، ووجد إلهًا يسـتطيع أن

يتكَّل عليه، وأيضًا وجد إلهًا يريد أن يتعرَّفَ عليه أكثر فأكثر: "لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّها بِمَوْتِهِ" (فيلبي ٣: ١٠). من يشرَبْ من ماءِ العالم سوفَ يعطش أيضًا، لكن من يشرب من الماء الذي يُعطيه المسيح فلن يعطش إلى الأبد. أمَّا المفارقة هنا، فهي أنَّه لن يعطش ولن يجوع إلّا إلى معرفة المسيح يومًا بعد يوم. فالذي يحبُّ لن يشبع من محبوبه، بل يطلب مزيدًا من الاقتراب منه والشَّركة معه. وعندما تتعرَّف على إلهٍ لا حدود لصفاته، ولا حدود لمحَبَّتِه، لن يكون هناك حدود أيضًا للنُّموّ في محَبَّتِه والشَّركة معه. هذا يُفسِّر رغبة هذا الرَّسول بالغوص أكثر في معرفة الرَّبّ. كتب للإخوة في فيلبّي يقول لهم: "أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ. وَلَكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ. أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ." (٣: ١٣ و١٤).

وخُلاصة القول، كُلّ ما ظهر أنَّه خسارة من النَّظرة البشريَّة كان بالنّسبة إلى بولس "نفاية"، أمَّا كلّ الرِّبح فكان بمعرفتِه للمسيح. **رجلٌ عظيمٌ من طرسوس التقى برجلٍ وديعٍ من النّاصرة غيَّر له مفهوم الرّبح والخسارة ومفهوم الحياة والموت.**

إنَّ النِّعمة المجَّانيَّة التي جعلت واحدًا من أوَّلِ الخطاة والمُجدِّفين أعظمَ رسول، بالتأكيد تستطيع أن تجعل من أيّ إنسان مهما كانت خطاياه وظروفه تلميذًا مجتهدًا ليسوع المسيح، له المجد وحده إلى الأبد.

”مَن كان أكثر عِلمًا بالعقيدة من بولس الرَّسول؟ ومَن كان أكثر جدّيَّةً في الدِّفاع عن الحَقّ؟ أي رجل كان أكثر تضحية؟ وأي رجل كان أكثر بطولة؟ لنرجعْ إلى العهد الجديد ونلاحظِ المساحة الكبيرة التي تكلَّم فيها الرّوح القدس بواسطة خادمه بولس، وبعدها لننظر إلى المسيحيَّة ونلاحظ تأثير هذا الرَّجُل المُستمرّ، والذي سيبقى حتى عودة السيِّد.“

شارلز سبرجن

الكاتب في سطور

القِسّ طوني سكاف

راعي الكنيسة المعمدانيَّة الإنجيليَّة – بدارو

- بكالوريوس في علم المعلوماتيَّة (جامعة سيّدة اللويزة)
- ماجيستير في اللّاهوت M.Th (معهد اللّاهوت المعمداني اللّبناني)
- الماجيستير العالية في اللّاهوت M.Div (جامعة لوثر رايس، أتلانتا، جورجيا)

للمؤلّف كتُب أخرى، هذه بعض عناوينها:

- الصَّلاة كما علَّمها يسوع
- الحرب المحسومة
- المسيحيَّة كما لا يعرفها الكثيرون
- أصعب ما يؤمن به المسيحيّون
- دعوة لتحقيق المستحيل
- عندما تنقلب الأعمدة

لقد كتب بولس الرسول ما يقارب نصف العهد الجديد، واسمه منقوش في أساسات الكنيسة الأولى في آسيا وفي أوروبا، لذلك لا نستغرب على سبيل المثال عندما تُتّهم المسيحيّة بأنّ بولس الرسول هو من أسّسها، فهذا الأمر مجرّد إشارة أخرى تدُلّ على حجم تأثير الرجل في عقيدة الكنيسة وتاريخها. لكن الشخص الذي يريد حقًّا أنْ يسبر غور حياة بولس وأعماله، يجب عليه أن يبدأ المشوار مع الفرّيسي المتطرّف شاول الطرسوسي، وأن يسيرَ معه في إرساليّة الدين والدم، مرورًا بطريق دمشق، وتلك اللحظة التي وُلد فيها بولس رسول المسيح المختار وفيلسوف المسيحيّة الأبرز. ثمّ أن يرافقه عبر البلاد والمدن التي سار فيها حاملًا رسالة النعمة، محتملًا الألم والتعب والخوف والضرب، هاربًا من عدوّ تلو الآخر، مقيّدًا في زنزانة هنا، أو مسوقًا الى سجن هناك. حينها فقط يستطيع المرء أنْ يُدرك أصالة الرسالة التي حملها بولس في قلبه وفي وجدانه ليعبر بها إلينا نحن الذين صالحنا الله لنفسه بنعمة ابنه الراديكاليّة فائقة الإدراك. في هذا الكتاب، يأخذنا القسّ طوني سكاف في تلك الرحلة لنكتشفَ قوّة تأثير بولس الرسول ومحتوى رسالته وعظمة إرساليّته. إنّنا ممتنّون لجهود القسّ طوني سكاف ولعمل الله من خلاله حيث لا يُفوّت أي فرصة لكي يُعلن عن رسالة نعمة الله. وإن كان الحديث عن بولس كما هو الحال هنا، فبالنسبة إلى القسّ طوني سكاف، يصبح العنوان "سفير النعمة" لأنّ النعمة هي عمود الإيمان المسيحيّ ووتد خيمته. يسرّ مؤسّستنا تقديم هذا الكتاب من أجل بُنيان جسد المسيح في عالمنا العربي.

New Nation/CEO
Danny Burmawi

ISBN 9798888950784